مناف كاظم محسن

الّذي لن يأتي

قصص

2023

الساردار

مناف كاظم محسن

الّذي لن يأتي

قصص

واعتقدت إنّها تشّعر بسحر ما مجهول، ينتشلها من كلّ هذا الاضطراب والفرح غير مبرر. تجربة لطيفة كانت، شيء ما يمكن أن تفعله الأحلام البريئة. ثم نظرت حولها بتوجس، هنا وهناك فرأته يخرج من تلك الظلمة الداكنة، ببزته العسكرية قادماً إليها من معسكر التدريب. تتطاير من حوله الكثير من الفراشات الملونة، وتتساقط عليه الكثير من الورد الأحمر. ثم غاب في الضّباب البارد الكثيف، وتلاشى برائحة الزّيتون الأسود. فسألته ببراءة الأطفال لماذا رائحتك تملؤني. لكنه لم يجبها، فقد صار رائحة تُستَنشَقُ في كلّ أرجاء المنزل الكبير!

الّذي لن يأتي

الساردار
DAR AL-SARD BOOK SHOP
شارع المتنبي – سوق الوراقين
07735929484
ISBN 978-9922-8758-2-8
9789922875828

الّذي لن يأتي

قصص

عنوان الكتاب : الّذي لن يأتي
المؤلف : مناف كاظم محسن
التصنيف : قصص
الطبعة : الأولى
سنة الطبع : ٢٠٢٣

ISBN : 978-9922-8758-2-8

مدير الدار : رياض داخل
التنسيق الداخلي و تصميم الغلاف : فلاح العيساوي
لوحة الفنان الأردني : غازي انعيم

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (٤٨١٨) لسنة ٢٠٢٣م

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤

بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com

رياض داخل: Facebook

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

مناف كاظم محسن

الّذي لن يأتي

قصص

٢٠٢٣

(أحد الأسباب التي تجعلني أتجنب الكلام بقدر الإمكان، لأنني دائماً أقول أكثر أو أقل من المطلوب، وهذا شيءٌ بشع بالنسبة لشخص لديه ولع بالحقيقة مثلي).

صومبل بيكيت

(عندما مات جدي ترك لي الوحدة، والبحث
الخائب عن معنى الأشياء المحسوسة)

مناف كاظم محسن

الّذي لن يأتي

(انّه لم يتعرّف على أيّ... منّا) قالت فاطمة لنفسّها وهي واقفة خلف نافذة غرفتها، تراقب عبدالله الجالس تحت شجرة الزيتون. فمنذ عودته من الأسر أعتاد كلّ صباح بعد إنهاء فطوره الجلوس على الكرسي المصنوع من جريد النخل، لا يفعل شيئا غير التدخين بشراهة، والاستغراق في عالم لا يعرفه أحد غيره. كلّ يوم يمرّ على عبدالله يزداد إحساسه بالغربة. ولم يعرف كيف يتواصل مع إخوته أو أي من أفراد عائلته. وكلّما سأله أحد -أيّ أحد- عن تلك الأيّام العصيبة التي قضّاها في الأسر، كلّما راح يسرد بانفعال وبتفاصيل مملّة عن كلّ ما هو غريب وغير إنسانيّ حدث له ولزملائه، خلف أسوار المعسكرات الموبوءة بالأمراض الخبيثة والنّفاق والخيّانة... تناثرت أعقاب السّجائر بين قدميه مثلما تناثرت سنوات عمرها الماضية تحت نفس هذه الشجرة، مع كلّ ورقة سقطت وتيبَّسَت وتفتّت عبر كل هذه السّنين

التي رحلت وصارت مجرد خيالات ضبابية في العدم. كانت تواسي نفسها رغم شعورها بالإهانة. نعم لقد أحسّتها بعمق وانكسر قلبها لذلك. أتعبها المرض فعلاً، فلم تعد تستطيع أن تتحمّل مثل تلك المشاعر التي تجعل قلبها الضّعيف ينعصر بشدّة ويضطرب فتتسارع أو تتباطأ ضرباته. لقد وقفت أمامه عدّة مرّات منذ عودته، وحاولت أن تكلّمه، أن تصّرخ بوجهه، معلنة عن وجودها. تمنت أن تخبره عن كل ألم أحسّته طيلة تلك السّنين التي أمضتها تترقب عودته بلهفة الطّفل الذي فقد إمّه. وأن تدفن رأسها في صدره كي ترتاح من كل كابوس أقضّ مضجعها وتركها هشّة مثل ورقة خريف تناثرت مع هبوب الرّيح. وأن تشكو له معاناتها، ففي السنوات الأخيرة اشتدّ مرضها، صار قلبها ضعيفا جدّا لا يتحمّل الصّدمات، لا يتحمّل الانفعالات المفاجئة سواءً كانت مفرحة أو حزينة. ببساطة تمنت أن تكون معه ويكون معها، يواسيها وتواسيه، تبكي في أحضانه ويبكي في أحضانها، يمسح على رأسها وتمسح على رأسه. كانت تريده بشِدَّة وتتمنى أن تدخل إلى عالمه الذي تجهله الآن، وتُزيل عنه كلّ أسباب الحزن الذي لا يفارق وجهه منذ عودته. وتمسح من ذاكرته كل تلك الآلام والعذابات

التي تعرّض لها وتركت في نفسه أثر مسح الكثير من ذكرياته المحبوبة. لكنّه في كلّ مرّة كان يخيّب أملها، ولا يشعر بوجودها. يبقى مستغرقا بدخان سجائره، غائبا في الملكوت الإلهي الذي تمنت أن تكون جزء منه.

دخان سجائره يرسم له صور فاطمة كلوحات هلامية تأخذه حيث مرارة الذكريات تعتصر رأسه. لكنّه رغم ذلك لم يزل يلاحق كلّ صورة، كلّ خيال، كل تأثير منها ليتأمله ثانية ويعيشه، مثلما يفعل كلّ يوم... فيراها لم تزل واقفة خلف نافذة غرفتها المطلّة على حديقة المنزل، تنظر إليه، ويعتصر قلبها الألم، تنفسها ثقيل جدّا. لكنّ خيال أبيها أنساها هذا الألم الحاد الذي يترك فيها إحساساً بالموت القريب، وأعاد إليها فرحها الطّفولي الهادئ والحزن العميق المتأصّل بجذوره نحو الأعماق السّحيقة. تعيش كلّ هذا الإلهام الإلهي، تتلاشى في ضباب ذهبيّ يأخذها بعيداً وترتفع أعلى وأعلى، في سماء الماضي البعيد، متأملةً الفرحة التي يعيشها أباها في تلك اللّيلة من ليالي أيلول المشرقة بوجه القمر، محتفلاً بولادتها هي، آخر بناته الخمسة وأبنائه الأربعة. يزرع وسط حديقة المنزل شجرة الزيتون التي كبرت وتفرعت أغصانها مثلما كبرت فاطمة وترعرعت في البيت الكبير.

وحينما أخبرها أبوها بعد خمس سنوات من ولادتها، وتحديداً في ذكرى يوم ميلادها، أنّ عمرها يوازي عمر شجرة الزيتون، فرحت كثيراً. أخذت تلعب قربها وهي صغيرة، وتعتني بها وتسّقيها عندما كبرت وأصبحت بنتاً يافعة. صارت جزءاً منها، فلم تنس يوما العناية بها أو الجلوس تحت ظلّها الوارف. تنصت إلى زقزقة العصافير المحلّقة بين أغصانها. لكنّها منذ ذلك اليوم الذي أخبرها فيه أبوها انّه سوف يزوجها من ابن عمّها عبدالله، تسارعت ضربات قلبها وسرت بجسّمها رجفة مفاجئة، أحسّت انّ شيئا ما قد تغيّر فيها. فرح مكبوت ربما، أو خوف من المجهول ربما، أو ربما هو مزيج من المشاعر المضّطربة التي لا تعرف كيف تعبّر عنها، تغيّر شيء ما بداخلها تجهل كنهه. تجلس أوقاتاً طويلة تحت شجرة الزيتون. تطيل النّظر للسماء، كأنّها تبحث عن غيمة تحملها إلى حقول خضراء لم يطأ أرضها أحد. كلّ شيء حدث ضبابياً كالأحلام. في تلك اللّيلة المعتمة دون قمر، كانت جالسة على الكرسي الهزاز في غرفتها مغمضة عيّنيها رافعة رأسها للأعلى متخيلة القمر في ليلة ساطعة، وكثير من الورد الأحمر ينزل من السّماء كالمطر.. استنشقت رائحته، رائحة الزيتون الأسود. فتحت عيّنيها

لكنّها لم تراه، لم ترى شيئا سوى ظلام حالك. واعتقدت إنّها تشّعر بسحر ما مجهول، ينتشلها من كلّ هذا الاضطراب والفرح غير مبرر. تجربة لطيفة كانت، شيء ما يمكن أن تفعله الأحلام البريئة. ثم نظرت حولها بتوجس، هنا وهناك فرأته يخرج من تلك الظلمة الداكنة، ببزته العسكرية قادماً إليها من معسكر التدريب. تتطاير من حوله الكثير من الفراشات الملونة، وتتساقط عليه الكثير من الورد الأحمر. ثم غاب في الضّباب البارد الكثيف، وتلاشى برائحة الزّيتون الأسود. فسألته ببراءة الأطفال لماذا رائحتك تملؤني. لكنّه لم يجبها، فقد صار رائحة تُستَنشَقُ في كلّ أرجاء المنزل الكبير!

عندما عقدا قرانهما. انتظرا اليوم الذي ينهي خدمته العسكرية كيّ يحتفلا بزواجهما. لكنّ اندلاع الحرب قد أنهى كلّ أحلامه وأمنياته. ولم يتخيّل يوما أنّه سوف يبتعد كلّ تلك السّنين عن فاطمة. فاطمة التي ما أن أخبره أبوه في تلك الليلة من ليالي أيلول، أنّه سوف يخطبها له حتى صارت كلّ أحلامه وأمنياته الصغيرة. كان يراها رقيقة جدا، لدرجة أن التّعامل معها يشبه التّعامل مع خيوط الحرير. أمّا فاطمة فأنّها لم تتصور انّ الحرب سوف تكون بكل تلك الشّراسة والهمجية. ولم تتخيل -عندما

كانت تلتقي به للمرّة الأولى بلهفة الأطفال الصّغار- انّ الانتظار سوف يسرق منها سنوات عمرها ويتركها تذبل مثل وردة في صحراء قاحلة. لكنّها لم تنس ذلك الصّباح القارص البرودة عندما ودّعت عبدالله عند التحاقه إلى وحدته العسّكرية. لقد قرأت في عيونه ألماً أعتصر قلبها وجعل دموعها تنساب على خدودها المتورّدة من البرد ربما، أو ربما من الخجل الذي لا تسّتطيع التخلّص منه. تمنّت أن تمتلك الشّجاعة لكي تخبره بأنّه قد أستحوذ على قلبها، وانّها سوف تنتظر عودته بفارغ الصّبر، لكنّها لم تفعل ذلك. خيّم عليها الصّمت عندما أمسك يديّها وقبّل جبهتها ثم مسح دموعها. فاستسلمت للمرة الأولى، يغمرها الفرح، تاركة نفسها تذوب مثل ندفة الثلج في الرّياح، شاعرة بارتباك مفرط، مما جعلها لا تعرف كيف تصف له مشاعرها المضطربة. حاولت أن ترسم ابتسامة على شفتيها كيّ يتذكّرها هناك بعد رحيله عنها، لكنّها ودون أن تدري ارتسم على وجهها حزن عميق، عميق جداً، حمله عبدالله معه هناك طيلة العشرين سنة في معسكرات الأسرى.

عندما عاد عبدالله من الأسر، لم يتوقّع أن اللّقاء مع أفراد عائلته سوف يكون بهذه الصّعوبة. كانت المفاجئة

صاعقة عليه وعليهم، لا أحد منهم يعرف انّه مازال على قيد الحياة طيلة هذه السنين الطّويلة. رغم إنّهم لم يستلموا جثته كيّ يتأكّدوا من موته. لكنّهم كذلك لم يستلموا رسالة منه ولم يسمعوا أيّ خبر عنه. خلال هذه السنين فاطمة لا تفعل شيئاً سوى الانتظار. رغم إنّ الانتظار قد جعلها منطوية على نفسها، تاركاً فيها حزناً عميقاً، كتمته عن الآخرين. صارت تذبل أمام الجميع، يوماً بعد يوم، لكنّهم لم يستطيعوا أن يفعلوا لها شيئا. وكلّما حاولوا أن يتحدثوا معها لتخفيف حدة الألم كلّما ازدادت انغلاقا على نفسها. حتّى تمكن منها المرض والضّعف، مثل شجرة سقطت أوّراقها وصارت أغصاناً يابسة. كل يوم بعد الغذاء تجلس بجانب النّافذة المطلّة على شجرة الزّيتون. تراقب أولاد أخوتها وهم يلعبون في حديقة المنزل، ثم تجد نفسها مثل كلّ يوم تتلاشى في الذكريات الأليمة التي كلّما عاشتها أحسّت بألم يعتصر قلبها. انّ الجلوس لوحدها يخلق منها شخصا آخرا لا يمكن فهمه.

أجتمع كل أفراد أسرته، أخوته وأبنائهم وبناتهم وأخواته وأبنائهن وبناتهن وأعمامه وعماته وأبنائهم وبناتهم وأحفادهم في الصّالة الكبيرة. ملتفين حوله

ينصتون بلهفة لكلّ كلمة يقولها، بينما امتنعت فاطمة عن الحضور وبقيت تصارع اضطرابها وخوفها في غرفتها وحيدة. منصتة لكلامه وتحاول ان تمنع نفسها من البكاء، لكن الدموع كانت تنزل رغماً عنها. محتجز كان في أقسى المعسكرات وأشدّها اضطهاداً. لم يكن يعرف لماذا لم يعد عند نهاية الحرب مثل أقرانه من الأسرى. وبقي محتجزاً هناك مع ما تبقى من الأسرى المنسيين. سنين طويلة مضت تعرّض خلالها للاضطهاد والجّوع ولكلّ أنواع الذّل. فقد الأمل بالعودة إلى أهله. وعندما حضر إخوته لاستلامه لم يسّتطيعوا التعرّف عليه ولم يسّتطع أن يتعرّف عليهم. ظلّ جامداً في مكانه يحدق في الوجوه الكثيرة المختلفة والغريبة عنه، علّه يرى وجه أبيه الحزين أو وجه امّه المحبوبة. ليال طويلة مرّت عليه في معسكرات الأسرى موحشة جداً، يحلم بهما، بلقائهم، في أن يدفن رأسه في صدر أبيه ويبكي، يبكي كثيراً، كثيراً جدّاً، مستسلماً لأبيه وهو يمسح بيده الحنونة على رأسه. أمّا الآن وهو يبحث في الوجوه كالتّائه، تمنّى أن يرتمي في حضن امّه بلهفة كبيرة، تشّبه لهفة الأطفال الصّغار الراكضين عائدين من المدرسة. لكنّه استسلم أخيراً لأخوته عندما تأكّد المسّؤولون من تطابق أسماء الأب

والأم في بطاقاتهم الشخصية. (هذه المعسّكرات تدفعك، قلبك، عقلك وروحك إلى بعد آخر ووجود آخر. إنّها تغيّر تفكيرك عن الطّريقة التي طالما أردت أن تشعر بها مع أحبّائك، ومن دون تردد أو سبب، ولكنّك لا تعرف متى تكون هناك. يمكن أن يكون الأمر محرجًا للغاية عندما تحاول توضيح ذلك لشخص آخر لا يشعر بكلّ هذا الذل داخل نفسه، ولا لأيّ شخص آخر. إنّه شعور خاصّ، خاصّ جدا، لذلك أميل إلى الانطواء والتّوحد، إنّه شعور يرفعك رغم ألمه إلى سماء العزلة فتكون متعالياً ووحيداً جداً، فتشعر بأنّك سوف يقتلك الظّمأ في صحراء قاحلة) قال بانفعال شديد ورذاذ لعابه يتطاير في الهواء، محاولة منه كي يجعل الجالسين من حوله منصتين له، أن يتخيلوا جزءاً من عذاباته هناك، في معسّكرات الأسرى. طيلة العشرين سنة التي قضّاها متنقلاً من معسكر إلى آخر، حتّى وصل إلى ذلك المكان النَّائِي، في أقصى الشّمال، حيث الجوع والعطش والبرد القارص الذي يلتهم الأجساد الضّعيفة تاركاً فيها أثراً لا يمكن نسّيانه أبداً، أثراً لا تضمّده العقاقير، لكنّها تزيده التهاباً. لم يكن يشعر إنّه جالس بين أفراد عائلته. جميعهم تغيّروا، الصّغار كبروا، والكبار ازدادوا كبراً. ينظر إليهم الواحد

تلو الآخر محاولاً أن يتعرف على واحد منهم، لكنّه عبثا يحاول. ازداد إحساسه بالغربة. ارتبك كثيراً. أحسّ بخيّبة أمل، خاصّة انّه لم يجد بيّنهم لا أبيه ولا امّه اللذين لم يتحمّلا حقيقة غيّابه عنهما. أضناهما الانتظار تاركاً فيهما وجع الفراق. لقد مات أبوه أوّلاً، ثم بعد ثلاثة أشهر فقط ماتت امّه. بعد أن يأسا من عودته حيّاً، بعد أن بكيا كثيراً واعتصرهما الألم دون أن يشعر بهما أحد. اختلطت دموعه مع قطرات العرق النّازلة من صلعته على تجاعيد وجهه الشاحب. ضمّ وجهه بكفّيه وراح يبكي وجسّمه كله يرتجف. ثم قال بصوت متحشرج (أكيد سوف يأتي غد، كنت أقول لنفسي هناك، في كلّ معسكر جديد أُنقل إليه. أواسيها، وأصبّرها على ما بلاها. وليس هناك شيء يمكنني القيام به كي أوقف هذا السيل الجارف من الأفكار المريضة التي ترسم مخاوفي وانتكاساتي هناك، كي أكون صلباً أمام كلّ وسائل التّعذيب والتّرهيب التي مارسوها معنا نحن الأسرى العزّل، الذين لا نملك الّا أن نكون تحت رحمتهم، إن كان هناك رحمة. وكل ذلك الشر القادم الذي لا أحد يسّتطيع الوقوف أمامه كيّ يتصّدى له، ويبعده عنّا، عن عقولنا وأفكارنا، كيّ نشفى من هذا الوباء القاتل، ورغم الألم، ورغم الوحشة التي

كانت تسّكن قلبي، كنت أحدق كالمذهول -عندما كانوا ينقلوننا من معسكر إلى آخر- للزّهور الجّميلة، الطّيور المحلّقة عالياً، المراعي المفروشة باللون الأخضر، البساتين بألوانها البراقة، أشعة الشمس الذهبية، المياه العذبة المتدفقة من أعالي الجبال إلى الوديان، وكل شيء جميل وساحر في الطبيعة، وأسأل نفسي لماذا لا نكون جزءاً منها، لماذا يفصلنا الألم عن كل ما هو جميل ومتألق ولا نشعر به أبداً).

نفث دخان آخر رمق من سيجارته فتشكّلت الصورة الأخيرة لفاطمة وهي واقفة أمام باب الصالة الكبيرة، فيما هو هناك في الداخل منفعل بحديثه. مترددة لا تسّتطيع أن تتحرك خطوة واحدة، مرتبكة. ضربات قلبها سريعة جداً. وكلّما تسارعت ضربات قلبها كلّما ازداد الألم فيه. تتحاشى النّظر إلى عبدالله. تسّمع صوته الذي افتقدته كلّ تلك السّنين مرتفعاً في الداخل لكنّها لم تستطع أن تنظر إليه. رفضت أن تدخل في البداية، خائفة أن يصاب بخيبة أمل عندما يراها الآن، بعد كل تلك اللّيالي الطّويلة من الانتظار المتعب، بعد كلّ تلك الشّهور والسّنين التي سرقت عمرها وحفرت في وجهها كلّ هذه التّجاعيد التي لا تستطيع أن تخفيها الآن. صار وجهها شاحباً جدّاً،

وجسمها نحيفاً. وهي الآن مريضة بالقلب، وليست بتلك الحيوية والنضارة التي كانت تشعر بها عندما ودّعته فجر ذلك اليوم القارص البرودة، تاركاً لها رائحته التي تشبه رائحة الزّيتون. أغمضت عيّنيها مستنشقة رائحته الزكية، أخذتها الأحلام والذّكريات إلى تلك اللّقاءات القليلة معه، إلى حديثه الشيق، إلى طيبته وحنانه، إلى لمسات أصابعه المرتجفة. في كلّ مرّة كان الارتباك يسرق منهما فرحة لقائهما معاً. لكنّها رغم ذلك لم تنس كلّ تلك الانفعالات والمشاعر المحبوبة، التي تحسّها عندما تكون جالسة قربه. دخلت بعد أن أربكها التّردد والحيرة. متوترة وتشعر بجسّمها كلّه يرتجف. أختنق صوتها عندما حاولت أن تسلّم عليه. لكن لا أحد منهم التفت أو انتبه إليها. كانوا منصتين لعبدالله الذي ما زال يسترسل بالحديث، حديث مشوش، مضطرب، وبين فترة وأخرى تخنقه العبرة ويبكي رغما عنه. عيناه مفتوحتان لكنّه لم يكن يبصر أحد. كان مستغرقاً في أعماق نفسه، محاولاً أن يتذكر كلّ شيء حدث معه خلال العشرين سنة التي أمضاها هناك. وصلت فاطمة منتصف الصّالة ونظرت إليه، خرجت من فمها شهقة لم تستطع أن تكتمها وسقطت مغميّا عليّها. شعرت بالرّعب عندما رأته. لم

تتخيل ولو للحظة إنّها سوف تراه بهذه الهيئة. منكسراً، ذليلاً. تساقط شعره وصار أصلعاً. وجهه شاحب جدّا، أضناه مرض السكري. جسمه ضعيف كأنّه هيكل عضميّ. كان شخصاً آخر يختلف كل الاختلاف عن ذلك الشّاب المفعم بالحيوية والذي قبّلها على جبهتها ومسح دموعها عندما ودّعته قبل عشرين سنة فجر ذلك اليوم القارص البرودة.

مشت بخطوات ثقيلة، وبين خطوة وأُخرى تتوقف لتأخذ نفساً عميقا يخفف قليلاً من الثّقل الذي تحسّه في صدرها، ذاهبة باتجاهه، حيث كان جالساً تحت شجرة الزّيتون، مصممةً على شيء ما لا يمكنها التّراجع عنه. أتعبها التفكير طيلة السبع ليال السابقة التي مرّت عليها كأنّها دهراً كاملاً وليست أسبوعاً فقط، منذ رجوعه من الأسر ولحد الآن. أحسّت بدنوّ الموت منها. لم تعد تفكر بشيء سوى أن تكون معه، حتى وإن نسيّها. أحسّت بالمسافة طويلة جدّا حتى أنّها اعتقدت أنها لن تصل إليه أبداً. لكنّها رغم حركتها الثّقيلة لم تفكّر لحظة بالتراجع. اتخذت قرارها بتصميم وانتهى الأمر الآن. تذكّرت وصيّة أبيه وامّه لها قبل أن يفارقا الحياة. تذكرت أبوعبدالله عندما كان يأتي لزيارتها كلّما اشّتد حنينه لأبنه وكلّما

أحسّ بحاجة ماسّة للبكاء. يجلس في غرفتها ساعات طويلة يحكي لها عن طفولة عبدالله، عن أوّل يوم ذهب فيه عبدالله إلى المدرسة. عن أعجاب معلّم مادة الرسم برسومات عبدالله حيث كان يكتب له دائماً في دفتر الرّسم (يا فنّان المستقبل). عن أوّل مرّة ذهب أبوه إلى المدرسة كيّ يحضر اجتماع الآباء وعندما سأل المعلّم قال له (لا تسأل عن عبدالله فأنّه من الطّلاب المتميّزين). عن مواقف كثيرة حدثت لعبدالله في البيت أو في الشارع أو في المدرسة أو في أماكن أخرى متفرقة. عن فرحة عبدالله عندما وافق عمّه أن يزوجه فاطمة. وأخيرا يخبرها انه كلّ ليلة يحلم به، ولهذا يجد نفسه متعباً جدّا، ولا يستطيع أن ينام نوماً طبيعياً، ثم تخنقه العبرة، فيبكي وتبكي معه حتى وأن حاولت أن تمنع نفسها من البكاء. فيقوم محنيّ الظهر ويذهب تاركاً لها غصّة وذكريات تأخذ شكل أحلام وكوابيس لليالي الشتاء الطويلة. أمّا امّه فقد كانت تقول لها دائما أنّها تسّمعه يناديها أينما تذهب. وعندما تنصت إليه خاصّة في مناماتها يخبرها انّه لم يمت لكنّه يتألم كثيراً، في مكان بعيد جداً، موحش وبارد، يرتجف من البرد، جائعاً، مريضاً، يطلب الصّلاة والدّعاء لأجله.. لم تعد ترى أمامها شيئاً سوى الصّور المزدحمة

في رأسها. لكنها رغم ذلك رأته. لا يزال غارقا في الصمت، لا يرى أحداً ولا يحسّ بخطواتها التي صارت قريبة جداً منه. الكثير من الفراشات الملونة كانت تحلق فوق رأسه، وتتساقط عليه الكثير من الورد الأحمر. وتنتشر حوله رائحة الزيتون الأسود.

نفث آخر مرّة الدّخان فثقلت ضربات قلبه حينما ارتسمت آخر صور فاطمة في مخيلته. فدوت صرخة احدى بنات إخوانها، كلّ أفراد العائلة ركضوا بسرعة، تجمعوا في حديقة المنزل، رَأوْا البنت ترتجف من الخوف لا تعرف ماذا تقول، لكنّهم عرفوا ما الذي أخافها إلى هذا الحد. لقد رأت عمتها فاطمة جالسة على الأرض أمام عبدالله الجالس على الكرسي المصنوع من جريد النّخل، واضعة رأسها في حجره مثل طفلة أتعبها البكاء في حجر أبيها. وعبدالله واضعا رأسه فوق رأسها، يداه ملتفتين حولها بحنان افتقدته كلّ تلك السّنين العجاف. ساد الصّمت والخوف على الموجودين، كباراً وصغاراً. وقفوا مذهولين أمام هذا اللقاء الحزين الذي لم يتصوره أيّ واحد منهم منذ رجوع عبدالله من الأسر وحتّى هذه اللّحظة. أخيراً تقدّم أخوها الكبير بحذر شديد جداً ووضع يده فوق ظَهْرِها بتوجس، حركها بهدوء

فسقطت على الأرض ثم سقط عبدالله بجانبها. كانا ميتين ولا أحد يعرف كيف كان لقائهما!

حين استيقظ رفاقه في معسّكر الأسر صباح ذلك اليوم الشتائيّ القارص البرودة وجدوه الحرس ميتاً في زنزانته المنفردة، وقد احترقت فروة راسه من أوهام الذكريات وأعقاب السجائر المحترقة.

خذ الذي يعنيك وانصرف

أيقظني صوت أمّي فنهضت مترنحاً، لا أزال تحت تأثير كابوس ليلة البارحة. نظرت في المرآة وأنا اغسل وجهي كان شاحبا. يا ألهى متى أتخلص من تأثير قصص جدتي، كانت لا تتعب من حكايتها الطويلة التي لم أستطع الصمود ليلة واحدة دون أن أنام قبل ان أعرف النهاية. يهزمني النوم دائما، كنت أعرف البداية وربما أقاوم النعاس حتى منتصف الحكاية لكنني لم أعرف النهاية أبداً، وكلّما حاولت ثانية في الليلة الأخرى يغلبني النوم. وفي المدرسة عندما اكتشفت القراءة صرت أقرأ القصص الطويلة كل ليلة، أقرأ الفصول الأولى ثم أهمل الوسط لأقرأ الفصول الأخيرة كي أعرف النّهاية قبل أن يهزمني النعاس تلك متعتي الوحيدة التي لم أشعر بالملل منها حتى وقت متأخر من حياتي. لا أدري لماذا كلّما اقتربت بتوجس من المقبرة القريبة إلى حد بعيد من منزلنا يركبني ألف عفريت، وكلّما نظرت إليها من خلف نافذة

غرفة جدتي تتسارع ضربات قلبي بشكل جنوني، ترتعش أصابع كفي ويضطرب عقلي بخيالات مشتتة. الأشياء من حولي تزداد شدة ألوانها وترسم أشكال عالية كثيفة غير ثابتة تتغير بسرعة، الكلاب تصبح كائنات مسعورة لا تعرف الرحمة فيما بينها وتخدش بمخالبها سكينة العالم من حولي، أنيابها الطويلة تقطر دما ولسانها الممدود ينز لعاباً مسموماً وعيونها المتوقدة ضائعة بين سواد الليل وسكونه المشحون بالخطر المتربص بها، تنقضّ كالنمور الشرسة على كل غريب يخترق قدسية الأموات الصامتة منذ الأزل وإلى الأزل، كل شيء يأخذ شكلاً آخر، تُمسخ الأشجار الساكنة وتزداد تفرعاً وغربة، العتمة تمتد عميقاً تلتهم صحوة الأسلاف البالغين في حكمتهم انتصاف النهار ونشاطه، العتمة شياطين شريرة تحوم حول رأسي سارقة مني رحمة الاله وعناية الأولياء الصالحين ولا يبقى غير الصدى المؤلم الراكض خلف رفات الموتى وخلف أنياب الأشباح الشفافة التي تخترق صلابة الأجساد هازئة من مادية الأحياء السائرين خلف الزوال كالعميان. كل شيء يأخذ شكلا آخر ويموت.....
تولد العتمة من رماد الموتى وتحلق في فضاء المقبرة، تحتضن نافذة غرفة جدتي لتموت ثانية مع بزوغ الفجر

وشروق الشمس المباركة. عندما كنت صغيراً كانت تحرسني عناية جدتي. لقد قالت لأمي:- (اعتني بأبنائك الآخرين واتركي لي آخر أحفادي كي يبعد عني وحشة الليل وكي أحس أنى لازلت تحت ظلال جده). وقد أدخلتني رغم عني لعالمها المليء بالعفاريت المشاكسة وشياطين النار ومملكة الجن التي تكره اطماع بني آدم وسلطته الخاوية في هذه الدنيا الفانية. صغيراً صرت بين أحضان جدتي أخاف بلا سبب وأرقب غرابة هذا العالم بلا سبب. أطمع أن أتوغل في غموض العالم بقليل من المعرفة وكثير من التوجس والعتمة والإحساس بكل ما يمسخني خاطئاً، رديئاً، حالماً، لا أعرف غير سحر والأناشيد المدرسية وحماية الأدعية المقدسة، وعاطفة الجنية الممسوخة التي تلاحقني أينما ذهبت، في كل مرة أجدها داخل نفسي، وتجدني داخل نفسها، جنية تلامس خدي بأناملها وتمتص بشفاهها دمي، تلسعني بنار الموتى ثم تعود حزينة كي تنام بين القبور المهدمة (لقد أكدت لي جدتي مرارا عندما كانت تحكي لي عن الجنية الممسوخة بأنها لن ترحل إلى عالمها السفلي الا بعد ان تأخذني معها) تسحرني بغنائها وتجرني مذلولا لطريق المقبرة ثم تفزعني بأنيابها وسواد ردائها المنسوج من رماد القبور

المسكونة، في كل مرة اجد نفسي صغيرا يبكي ابحث عنها في كل الأمكنة، واهرب منها من كل الأمكنة. في بعض الليالي الموحشة تمتد يدها الشبحية بتوجس تعتصر خفقات قلبي الصغير فتسكنه سارقة مني بزوغ فجر جديد لم يولد بعد. رغم عنادي الأول ورغم يقيني الأخير بأنها ليست الا خرافة من خرافات جدتي وخوفي الساذج من قدسية المقبرة القديمة لكنها لم تزل حتى وقت متأخر من حياتي تقض مضجعي وتهددني بعالمها السفلي الذي لا يعرف من صلابة الواقع الا شكلا ومن حركة الأجساد الا جهلا وبلاهة.

في ليالي الشتاء القارص اعتدت الجلوس قرب المدفأة منصتا لجدتي، لعاطفة صوتها الشجي الذي ينسج مع دفء النار صورا كثيفة، مخيفة لكنها مثيرة، يرتفع صوت جدتي المحبوب قائلة (قال الأولون... اختطفها المشعوذون قتلوا أطفالها الصغار أمام عينيها عقابا لها لسخريتها منهم وجرأتها التي أرعبت بها نساء زمانها ووقاحتها التي هاجمت بها سحر المشعوذين وسطوتهم. ثم مسخوها جنية حزينة متوحشة تلاحق الصغار. تخطفهم من بين أحضان أمهاتهم كي تمتص دمائهم ثم تبكي أياما وليالي بعد كل طفل تقتله وتفشل في ان

تمسخه جنيا صغيرا يبعد عنها وحشة القبور وضلال الأشجار العالية. جميلة كانت سحرت بقوامها الرشيق الأنس والجن ولكنها لم تكن لأحد الا لزوجها التاجر اليهودي. في كل مجلس كانت تسخر من مشعوذين الليل وغبائهم. وترفض التعطر بالبخور المقدمة أجلالا واحتراما لهم مثلما يفعلن نساء ذلك الزمان. وجهها كان حقل قمح ذهبي. عيونها كسواد الليل الصافي. ووجنتاها بنعومة الفجر. نهداها طائران صغيران من الفردوس يسيل من حلمتيها شهد لا يتذوق طعمه ويتلذذ به الا الملوك والسلاطين. تعرف الرقص والغناء لكنها لم ترقص الا من اجل زوجها ولم تغن الا من اجل صغارها الثلاثة). تلك كانت جنية المقبرة التي تتقمص كل وجوه النساء قناعا وترتدي أجسادهن أثوابا كي تثيرني وتخدعني ثم ترمي القناع بعيدا عنها في اللحظة الأولى التي تخطفني من بين أحضان جدتي.

(سوف تتأخر عن الكلية) أيقظني صوت أمي من خيالاتي المشتتة. كنت قد أنهيت فطوري. يا ألهى... كانت أيامي الأولى في الكلية كئيبة للغاية. لم أستطع التعايش مع الطلاب وكنت منعزلا عنهم أصبحت القراءة العزاء الوحيد لشعوري بالوحدة. لكن بعد خمس سنوات

ظهيرة أحد أيام أيلول عندما كنت حاضنا بندقيتي في الخندق ومثقلا بشريط الرصاص الذي يلف جسدي تذكرت ذلك اليوم لما كنت ابحث عن مكان منعزل في أحد جوانب الكلية كي اقرأ رواية قد استعرتها من المكتبة عندما وقفت أمامي أحدا طالبات صفي. فسألتني عن الكتاب الذي بيدي. لقد تحدثت طويلا عن قراءاتها السابقة وهي تتصفح الكتاب أمامي، ثم جلست بجانبي أثناء المحاضرة تاركة فخذها الأيمن يلامس فخذي الأيسر. مر الوقت سريعا دون أدني حركة مني. في تلك اللحظة لم أكن أبصر عيونها الكحيلة ولا انفها الصغير ولا شفتيها المرسومتين بالأحمر القرمزي ولم أحدق بنهديها المختبئين تحت ثوبها الأزرق الداكن الملتف حول جسمها الممشوق كعاشق مجوسي أحرقته النار المقدسة، ولم أحاول ان اسرق نظرة خاطفة لساقيها العاجيتين، كنت جالسا بجنبها فحسب، وجهي ممدود للأمام لا أبصر شيئا، منتشيً برائحة الأنثى الخالدة المتغلغلة بأنفي محطمة جميع الأبواب والنوافذ المغلقة بذاكرتي شاعرا بجسمي قد صار خفيفا كالريشة المقلوعة من طائر الهدهد. وفي الظهيرة ودعتني عند بوابة الكلية بعد ان أخذت الكتاب معها. صرت وحدي فجأة. أخطو

فوق الأرصفة المبتلة مسحورا برائحتها العبقة. لم أكن أرى الشاحنات الصاخبة وهي تجتاز الشارع مسرعة ولا واجهات المحلات التجارية ولا المتسولين القاعدين متعبين على جانبي الرصيف الأسفلتي ولا الصغار الراكضين عائدين من المدارس ولا العاملين المنهكين بملابسهم الرثة ولا عباءات النسوة المتراقصة مع الرياح الباردة كنت أرى فقط ظلالا متحركة وألوانا براقة تأخذني بعيدا عن هذه المشاهد اليومية المتكررة. وعندما وصلت للمنزل دخلت إلى غرفتي ولم اذهب للمطبخ كي اسأل امي عن الغذاء مثلما افعل كل يوم، أغلقت باب الغرفة وارتميت على السرير محدقا بسقف الغرفة فترة طويلة. نادتني أمي كي أتناول الغذاء فنهضت خارجا من غرفتي كالماشي أثناء نومي ثم عدت ثانية وارتميت على سريري محدقا بسقف الغرفة دون ان أحس بالدقائق والساعات الراحلة. أيقظني صوت أمي في المساء فنهضت متكاسلا وخرجت. عدت ثانية بعد تناول العشاء وارتميت على السرير محدقا بسقف الغرفة. ولما غلبني النعاس رأيتها بثوبها الأزرق الداكن وقد أخذتني في رحلة جميلة بعيدة عن تعقيدات الواقع. وفي اليوم الثاني وصلت مبكرا. جلست في أخر قاعة المحاضرات منتظراً وصولها. كانت

الدقائق تمر ثقيلة بلا معنى. أخيراً دخلت للقاعة في اللحظات الأخيرة قبل بدأ المحاضرة. كان وجهها مشدوداً. صعد الدم سريعا لوجهي واضطربت ضربات قلبي، أحسست بوجهي يلتهب وأنا أبصر انحناءات جسمها منتظراً جلوسها بجانبي لكنني خفضت رأسي وشعرت بالخيبة كالعلقم الذي ابتلعه رغما عني حينما جلست بجانب زميلتها في الجهة الأخرى من القاعة تاركة إياي كالطفل الذي يبكي دافناً رأسه في صدر امّه.

كان اسمها سارة. حفيدة مقاتل عثماني عرف عنه الشراسة والولاء الأعمى للسلطان. لكن بعد سقوط الدولة العثمانية التحق هو وعائلته بإحدى القوافل الهاربة من بطش الثوار الغاضبين على كل من يوالي السلطان المنفي، والمهاجرة للشمال الذي يسكنه الأكراد المعروفين بحبهم للقتال والصيد. كان على القافلة ان تجتاز الحدود التركية في احدى الليالي التي يكون فيها القمر مختبئا بين الغيوم فيصبحون أشباحا لا مرئية يمكنها اجتياز العساكر دون ان يحسوا بهم فيقبضون عليهم ليكون مصيرهم الموت. ومن اجل سلامة القافلة اقترح رئيسهم ان يشد حول خصره حبلا متينا ثم يمد الباقي منه إلى الأخر الذي يتبعه لكن دون ان يميز خطواته كي يشده

حول خصره ويمد هذا بدوره الباقي من الحبل إلى الأخر خلفه. وهكذا حتى أخر فرد في القافلة الطويلة. لقد واصلوا رحلتهم بلا حديث. صامتين. الرجال النساء الشيوخ العجائز الصبيان البنات والأطفال الخائفون من ظلام الليل وسكونه المشحون بالخطر. لم يشهدوا أقسى من هذه الرحلة طيلة حياتهم. كان الصراع ضد شبح الموت والفناء ومن اجل حياة أخرى بعيدة عن أهوال الحرب والانتفاضات الهمجية حفز فيهم الشجاعة والصبر وتحمل الجوع كي ينهوا هذه الرحلة بسلام. (ليال طويلة نقضيها ملتفين حول جدتنا نتخيل تفاصيل هذه الرحلة حتى صارت ارثنا الوحيد الذي لا نستطيع التخلص منه مهما حاولنا) قالت سارة قاطعة حكاية أجدادها، ثم خفضت رأسها وسكتت فترة طويلة كنت خلالها أتأمل الحزن المرتسم على وجهها. لكنها استنشقت نفسا عميقاً وواصلت حديثها كأنها تعيش الحدث مع أجدادها. فبعد التخلص من العساكر المدججين بالأسلحة كان بانتظارهم خطر الذئاب المفترسة الجائعة، وبعد التخلص من الذئاب كان عليهم ان يباغتوا قطاع الطرق الساكنين في الجبال والذين يتخذون من الليل حارسا أمينا لهم. وصلوا أخيرا لقرية

صغيرة في الشمال سكنوا فيها سنوات ثم هاجروا مرة أخرى بعد اندلاع الحرب بين عصابات الجبال والسهول لكن هذه المرة إلى اقصى الجنوب. فاستقروا هناك حتى أخر يوم من حياة أخر حفيد منهم متخذين من المنازل القديمة مسكنا لهم. ولدت سارة في زمن السلم. لم تعرف الهجرات القاسية تحت تهديد العساكر وخطر الذئاب وغدر اللصوص الذين يلبسون الدروع الفولاذية، ولم تشهد غدر العصابات التي أتعبتها الحرب لكن زادت من قسوتها ورغبتها في القتل والتشرد، ولم تعرف برد الشمال القارص الا في أحاديث العجائز والشيوخ والصور القديمة التي أتلفها الزمن فأصبحت مشوشة.

كانت القلادة التعريفية للجندي حول رقبتي قد حكمت علي ان أكون منفيا في كل مكان. الدودة أكلت الوردة في دجى الليل والرصاص يلتهم الأجساد التهاما. بان الصباح على وجهي وانتشر الغبار قاسيا في ارض المعركة تاركا انطباعا غاضباً. لم أكن أحرك وجهي احتقاراً، كنت متمرغاً في الطين من أجل وطن قد تمرغ معي في الطين أياماً وليالي كي يحرك وهماً متجدداً في أعماقي. أمضيتُ سنيناً محاولاً حشر نفسي في تناقضات هذا العالم دافعاً خيالي المتخشب كالإسطبل نحو الأمام

كي أفهم بعضاً من أحداثه الغريبة عن نفسي ولم يبق لي غير الآلية البليدة في التصنع والتمثيل الخائب في وطن غارق حتى النهاية في الطين وانتهيت الآن في حرب غامضة سارقة مني وجود كل من أحببتهم وعشت فرحاً بتأمل حكاياتهم. خلف المدفع كنتُ شبحاً مظلماً، عارياً، متلاشياً لا أحد متلاش مثلي. فأنا بعيدٌ عن أمّي وعن جدتي رجل حرب. أتخيل في بعض الأوقات ذلك الزمن البعيد لما دفن الأحياء مع الأموات، متوقعا الألم، الخوف، العزلة، وأعني انتحار الكاهن، يوم كان الانتحار قدراً كالموت ولم يكن هزيلاً كالجواد الأعرج. خلف المدفع أتذكر وجه أمّي الذي يملؤني حضورها المباغت ويملؤها انتظاري. ولما كانت تحتويني بعيونها الساكنة كنت أتوارى كالحصان الوحشي الضائع في المراعي المغسولة بالأخضر الصافي فأصبح قذيفة مدفع أو صقراً محلقا بين الغيوم. وانا لا أعني من الكلمات سوى ما تعنيه الكلمات. لا وقت لدي كي أعنى ما أعنيه ولا وقت لديهم كي يطلقوا الرصاص علي فينتزعوا جسدي. كان يوما قائظا حينما وصلت بلا اكتراث مع بقية الجنود إلى ارض المعركة وخسر العالم نفسه. بقينا عشرة أيام مبعثرين مشتتين، يخنقنا الغبار، لا نتذكر سوى أرواح

الجرحى الزاحفين دافعين الأقنعة الفارغة كي يحشوا شيئاً بارزاً أو قادراً على توليد أصوات قذرة. أصبحت شخصاً متذمراً صارخاً. كنت إذا ما فرغت من تنظيف سلاحي أستلقي مستأنفاً الحديث عن الخيول السريعة كالسهام والأوسمة العسكرية واصفاً لفترة طويلة الجزم الجلدية ونساء هزيلات يمارسن كل أشكال العشق فوق الحشيش الناعم، وقرب الخيول المحبوبة، مستغرقا في الاوقات العصيبة برائحة سارة العبقة لما كانت الزهور المتراصة حولنا تولد حفيفا كثيفا كالموت المعتم الزاحف بطيئا من بين العرق المتطاير ثم يحل علينا بلون الستائر الباهتة. كنا منعزلين عن العالم الصاخب. ولا أتذكر الأن (وسط الغبار الساخن في الخندق) الا يدها الناعمة كالبرتقالة وهي تلامس جسدي الرصاصي، أبقي ساعات منصتا لأنفاسها متخيلا الخيول الراكضة فوق البرسيم وجدارا عاليا وقبعة سوداء طويلة فارغة وأشجارا خضراء عالية وقططا سوداء تموء قافزة فوق الجدار، ثم شجرة يابسة وقبعة زرقاء وأوراقا متناثرة ونساء راقصات تمنحهن الأرض المزروعة رائحة الأنهار. كانت سارة شامخة، مرتبكة ارتباكا توارى خلف المقاعد والأوراق المتساقطة التي لم ينظر فيها أحد. تضع ثوبها الأحمر فوق رأسي

وترقب انزلاقه عني ضاحكة، تستطيل بجانبي مثل قطرة مرئية تتبعها قطرة أخرى ثم تتحرك كالعجينة في الظل، أشعة تتعاظم في الظل فوق خوذة المحارب المتروكة بعربات الموت قبل اكتشاف البارود الأسود فأصبح الأن قدرنا المحتوم.

كان صوت الرصاص وانين الجنود الجرحى قد جعلني أتكور في الخندق المظلم منصتا لأصوات الجنود الغاضبة ربما تمردا ضد هذه الأرض التي تبتلع في أحشائها كل من يتخاذل أو يستسلم لخوفه الصامت، أو ربما كي يرحل الموت بعيدا عنا كالرياح الثلجية المندفعة باتجاهات غامضة ناسية هؤلاء الجنود المثقلين بجراحاتهم تاركين أحلامهم في عيون النساء الجالسات ينتظرن الحب الأول يلتحف الأجساد البراقة، أو ربما كان خوفا مكبوتا داخل نفوسهم المعتادة رتابة الحياة اليومية ناسية تدفقها الصافي كالأنهار فتكون كتلة واحدة تموت بلحظة وتعيش بلحظة. لا أدرى. لقد فر الجنود ولم بيق أحد قربي سوى الموتى والجرحى. كنت أنصت لقصف المدافع ورنين الدبابات وقصف الطائرات المرتفعة نجوما قاتلة في السماء والوقع المكتوم للجزم الجلدية الضاربة في الأرض أشبه بالطبول الأفريقية. كانوا يقتربون

منـي. اسـمع صـدى أصـوات الجـزم الجلديـة تضـرب الأرض مقتربـة أكثـر وأكثـر. ارتفـع جسـمي كالريشـة فـي الهـواء ثـم سـقط فـي الخنـدق متمرغـا بـالتراب بعـد ان انفجرت القنابل بين أجسادنا. حاولت التركيز رغـم الآلام بعيدا عـن أنين الجرحى من حولي فرأيت نفسي متكوراً واعضـاء جسـمي كلهـا ترتجـف مـن الخـوف ربمـا أو مـن البرد لا أدرى كنت مشوشا وكل شيء حولي كان مغبرا. اختفـى كـل شـيء ولـم اعـد اسـمع أنـين الجرحـى ولا أصوات المدافع والدبابات. أحسست بضياء ساكن داخل نفسـي المتعبـة ويـد أمـي الحنونـة تمسـح علـى رأسـي وحضـنها الـدافئ صـار كـل عـالمي. نسيت كـل شـيء وانـا اسـمع صـوتها الحـزين ودموعهـا السـاخنة تبلـل وجهـي المغبر كانت هي ملجئي الأخير الذي يحميني من كل شر يصيبني في هذا العالم الوحشي.

(جدي... حان وقت النوم) قال الحفيد لجده الجالس متكورا خافضـا رأسه بين رجليه وصـامتا منذ فترة طويلة احسها الحفيد دهرا كـاملا. اتكأ الجد على حفيده وسـارا معا إلى الفراش تمدد دون ان يعترض على شيء ثـم غطا الحفيـد جـده بعنايـة نـاظرا إلـى عيونـه التـي تعكـس امتنـان الجـد لـه وتخيلـه يبتسـم ابتسـامة كـان يحبهـا ويتمناهـا منـذ

أمد طويل جدا. كان يريد ان يركض لامه كي يخبرها فرحا (أماه... أماه... جدي ابتسم لي لقد رأيته يبتسم لي وحدي) لكنه بقي ينظر إلى جده الذي راح في سبات عميق.. عميق جدا.

غيبوبة

أفاق من غيبوبته، وجدها جالسة على الكرسي بجانب سريره، تنظر إليه بعيون أثقلها السهر. (غبت عني طويلا) قالت وهي ترسم ابتسامة على شفتيها المرتجفتين. دارت عيناه في أرجاء ردهة العناية المركزة. تساءل في نفسه ما الذي أتى به هنا؟ لم يستطع الكلام لكنه حاول رغم الآلام التي يحسها في جميع أنحاء جسمه أن يمسك يدها ويضعها على جبهته الملتهبة، فتلاقت عيونهما. مر وقت طويل جدا يبصر أحدهما الآخر. خفت آلامه بحنان نظرتها. اغرورقت عيناها بالدموع. تبلل خده بدموعها المنسابة على خدها، فمسحتها بطرف أصبعها. في عينيها رأى وجهه، شاحبا تلفه الضمادات، مثقلا بالجراح، فاضطرب لذلك جدا. كمرآة صافية كانت عينيها تعكس له كل الأحداث الماضية. منذ خروجه من المنزل قبل سنوات نسي أن يعدها. صباح ذلك اليوم الربيعي. في الثامنة من عمره. عندما خرج مع رفاقه إلى تلك

الاحتفالية المشؤومة، (يا ربي ما كان اسم الاحتفالية تلك؟) حاول أن يتذكر لكن رأسه مثقل بصور أناس ربما رآهم في مكان ما، ونسيهم، ونسي لماذا يراهم الآن في مخيلته بهذه الحدة وبذلك الوضوح الصاخب. تذكر أخيرا، عندما خرج من المنزل راكضا كي يلحق أصدقاءه. مرتديا زي الطلائع، متهيئا للاستعراض الذي نظمته إدارة مدرسته كمشاركة في العيد السنوي للبلاد. ورغم فرحته وإحساسه بالحرية وهو يراقب تلك الشاحنات الكبيرة المزينة بالأعلام والورود وسعف النخيل، إلا أنه أحس بالضياع والخوف. كانت تلك الشاحنات تحمل بنات وأولادا بملابس براقة يرقصون بحركات متشابهة كالفراشات الملونة، على أنغام الأناشيد الوطنية، وينثرون الورد ودفاتر ملونة على الجمهور الواقفين يحيونهم في كلا الجانبين من الشارع المزين بالشعارات والأعلام الملونة. لم يعرف من أين خرجت له تلك البنت الجميلة جدا، ترتدي ملابس فلاحة تتهيأ للحصاد، كأنها حورية من الجنة، عندما غمره الفرح بذلك الدفتر الذي سقط قربه، والتقطه يقلب بصفحاته مبتهجا. (أنا لم أحصل على دفتر!) قالت له بعيون حزينة وهي تنظر إلى ذلك الدفتر الذي أنقض عليه بكل سرعته كي يلتقطه من بين

الجمهور الصاخب. نظر إليها مرتبكا، لم يعرف ماذا يفعل، ولم يستطع أن يتخلص من سحر عينيها اللتين كانتا بلون العشب الأخضر. (أنا لم أحصل على دفتر!) كررت عليه. أراد أن يعتذر لها ويقول إنه لم يحصل إلا على دفتر واحد فقط، لكنه كالمسحور رأى نفسه يعطيها الدفتر. أخذته واختفت في الزحام. وجد نفسه وحيدا، ضائعا، التفت يمينا ويسارا. بحث عن أصدقائه، فلم يجد أحدا منهم. تملكه الخوف وراح يبكي، يبكي لضياعه، ويبكي لاختفائها دون أن تقول له كلمة واحدة. على الرغم من السنين الطويلة التي مرت على تلك الحادثة إلا أنه كلما تذكرها أحس بالخجل من نفسه. لكنها جميلة جدا، جميلة وأنانية.

ضغط على يد أمّه اليمنى بعد أن وجدها بصعوبة. حاول أن يبتسم لها لكنّ الألم في رأسه شديد لدرجة أنّه كان يراها غير ثابتة مثل بقية الأشياء المتحركة في هذه الردهة. تمنّى أن يعود طفلاً، أن تحمله وتضعه في حضنها الدافئ. تطبطب على رأسه وتغنّي له بصوتها الشجي الحزين، وينام، ينام ويحلم بأبيه. (أمّاه كيف كان أبي؟). كثيرا ما كان يسألها، خاصّة إذا حلم به واستيقظ من نومه ولا يجده أمامه، فيشعر برغبة شديدة لوجوده في

ذلك اليوم. أو ربما لأنّه تمنّى فعلا أن يراه، أن يرى ذلك الأب الغامض الذي لم يستطع أن يحدد معلماً له. كلّما حدثه شخص ما عنه ارتسمت له صورة جديدة، وملامح جديدة. (تزوّجنا في الحرب. لم يبق معي سوى شهر واحد. التحق بعدها في الجيش، إلى جبهات القتال، ولم أره بعد ذلك. انتظرته سنوات طويلة لكنّه لم يعد) أخبرته امّه في إحدى ليالي الشتاء الماطرة، عندما كانوا ملتفين حول المدفأة النفطيّة، يشعر بالدفء ويتخيّل بلهفة كلّ كلمة تنطقها أمه، يتمنّاها أن تستمر بسرد كلّ ذلك الوجع الذي يتمنّى أن يكون بداخله، ليعيش كلّ لحظة وكلّ إحساس عاشته امّه وتحاول أن تنقله له بهذه الكلمات التي تذيب القلب، خاصّة عندما تخنقها العبرة بين فترة وأخرى، فتتغيّر نبرات صوتها وتسكت رغماً عنها، محاولة أن تمسح دموعها لكنّها لا تستطيع إلّا أن تظل تبكي فترة يحسّها طويلة جداً. تأخذه الحيرة ولا يعرف كيف يواسيها أو يزيل عنها هذا الحزن الذي تكتمه في قلبها النقيّ. تلك الجلسات كانت جزءا من أجوبتها عن أسئلته الكثيرة عن أبيه، عن ذلك الحلم الذي لم يبق منه إلّا صورة معلّقة على جدار غرفتها وذكريات تمطر عليها وحشة وغربة وأحلاما مشتتة. والآن وهي تمسح على

رأسه الملفوف بضمادات تزيد الثقل على رأسه، يحس بخوفها المفرط أن تفقده هو أيضاً، بعد أن فقدت أباه في تلك الحرب الملعونة. فبعد عشرين سنة من رحيل أبيه التحق بالجيش وشارك في حرب ملعونة أخرى. لن ينسى ذلك الصباح الشتائي البارد، أول يوم له في الجيش، مرتديا بدلته العسكرية. يعرف أنّه لا يستطيع أن يتجاهل قلق واضطراب امّه وهي تهيئ له حقيبته التي سوف يأخذها معه. رغم صمتها إلّا أنّه يعرف ما كانت تكبته من حزن وخوف عليه. لذلك فقد أحس بغصة تمنعه من الاندماج بكل ما يصدر من رفاقه من مرح وحركات صاخبة. لم يلتفت إلى إمّه في تلك اللّحظة عندما خرج ذاهبا مع رفاقه، ولم ير دموعها المنسابة على خدودها. لكنّه أحس برذاذ الماء المنسكب خلفه. منصتا لكل الابتهالات والأدعية التي كانت تتلوها بخشوع وبصوت مرتجف كي يعود إليها سالما.

كانت نظراته زائغة، يحاول ان يخبرها بكل شيء حدث له، لكنه لم يستطع أن يستحضر كل ذلك الرعب والجحيم الذي عاشه هو ورفاقه، منذ أول يوم لوصولهم إلى أرض المعركة وحتى اليوم الذي تم فيه الانسحاب غير المنظم، تحت قصف الطائرات المحلقة فوقهم،

وتحت المطر المتساقط بغزارة. ظهرت له أخيرا صور مشتتة من ذلك اليوم المخيف حقا. نعم تذكر الآن كيف كان يركض حامل على ظهره رفيقه الجريح، محاولا أن يصل إلى مخبأ قريبا يحميهما من قذائف الطائرات. رغم الخوف المتغلغل فيه إلا أنه لم يفكر أن يترك رفيقه ويهرب (سوف تموت معي... اتركني، أرجوك) سمع صوت رفيقه، ضعيفا مرتجفا يعكس حدة الألم الذي يحسه وهو يردد كلماته بصعوبة. (لن أتركك أبدا... إما أن نموت معا أو نعيش معا) قال لرفيقه، ولم يعرف من أين أتت له كل هذه الشجاعة وكل هذا الإصرار. لكنه عرف أخيرا عندما تراءى له أبوه من بين كثافة الدخان المتصاعد، فاتحا له ذراعيه يريد أن يحتضنه ليحميه من هذا الموت الأسود الذي يلاحقهم ويصطادهم كالذباب. (أنك تمدني بالشجاعة يا أبي عكس أمي التي زرعت الخوف في داخلي كل تلك السنين التي عشتها بعيدا عنك) فكر في نفسه، يحدث شبح أبيه الذي يراه أمامه الآن. وأحس بالخجل من أمه عندما تخلى عنها، بعد أن تملكه خيال أبيه. تذكر حزنها وانتظارها فأعتصر قلبه حزنا وألما. تمنى أن يعتذر لها، يقبل يديها ورأسها ولا يفكر إلا بها. ازداد ثقل رفيقه عليه وأحس بالإعياء وهو

يـركض، لا يعـرف متـى ينتهـي هـذا الكـابوس المـؤلم. تعثـرت أقدامـه وسـقط علـى الأرض منهكـا جـدا، ارتمـى رفيقه بقربه صـارخا مـن شـدة آلامه. حـاول النهـوض كـي يطمئن على رفيقه. لكن رشقة من قذائف الطائرة انفجرت قريبة جدا منهمـا. أحس بجسده يطير في الهـواء ويرتمي على الأرض، مثـل الريشـة. كـان آخـر شـيء يتـذكره شـبح أبيـه عنـدما أخـذه فـي حضـنه يكلمـه ويمسـح عـن رأسـه التـراب. بعـدها أغمـض عينيـه وأستسـلم لـدفء أبيـه، غائبـا عن كل شيء. وعندما فتح عينيه وجد نفسه هنا في صالة العناية المركزة.

غمـر أمـه الفـرح عنـدما رأتـه يفـتح عينيـه، وينظـر إليهـا. تلاشـى خوفهـا عنـدما أمسـك يـدها اليمنـى ووضـعها علـى جبهته. وعندما تلاقت عيونهما حاولت أن تبتسم له رغم تعبها من السهر والأرق كل تلك الليالي الماضية. تمنت أن يتكلم معها حتى ولو كلمة واحدة، لكنه لم يستطع. مر وقت طويل تنظر إليه بلهفة، ارتفعت صرختها عالية في أرجاء الردهة عندما رأته يغمض عينيه.

احتضار اللّحظة

أقترب منها بتوجّس وجلس بجانبها حيث كانت محاطة بهالة من صمت أزليّ ساحر، أدخله لقدسيته المحبوبة. لم يكن يسمع في تلك اللّحظة غير ضربات قلبها الصّغير وضربات قلبه التي لم يستطع لحد الآن السّيطرة عليها، وعلى ما يجتاحه من اضطراب صاخب. لامست أصابعه المرتجفة المنديل الأبيض الحريريّ الذي كان يُغطي وجهها الغارق في بستان الخجل والبراءة، محتفظاً لنفسه المضطربة بما تحمله من سذاجة اللّحظة وغموض الاستسلام. ثم رفعهُ ببطء، ببطءٍ شديد، شديد جدّاً، محتفلاً لوحده فقط، نعم لوحده، دون أن يشاركه أحد، بكلّ هذا التّوجس، والاقتراب من جمالية الخضوع، والاختباء خلف الحُجب المحفوظة ونكران الذّات الصّافي. فهاله ما رأى. لم يكن يعرف بأنّ الأنوثة ضباب كثيف يخترق سكون القلب ويحجب ارتباك الوجه الصافي، القادم من أقصى الأحلام السّريعة الزّوال.

ضباب يحرك سكون الدّم لا بانتظام مثلما اعتاد عليه، وأنّما بحيوية تشبه رقص النمور المرقّطة الصّغيرة قرب ثُدِيَ أمها. ما رأته عيناه الغائبتان في حفيف الستائر والشراشف الملونة كان حقيقة صافية، وجه ملائكيّ منخفض من فرط الخجل والارتباك، وأهداب مسدله تخبئ عيوناً نضرة، ربما لو رأى سحر توهجها لاستيقظت كلّ مخاوفه المدفونة في بئر عميق عمق نفسه، والتي هجرها الآن رغم هواجسه المريضة التي تميت أجواء الفرح المتلألئة واهتزاز الروح المسكينة، وتعيده طفلاً صغيراً ضائعاً في الزّحام، باكياً يبحث عن امه. وحيداً كان بين جموع الناس المسرعة، يلتفت هنا وهناك، خائفاً أن يبقى هكذا، لا أحد يسأله لماذا البكاء؟ لكنّه بعد وقتٍ طويلٍ جداً أحسّ بيد امّه المسكينة تمسكه من ملابسه وتسحبه بسرعة إلى جانبها، كانت غاضبة جداً منه، وكان خائفاً جداً منها. لكنّها أخيراً وجدته رغم بكائها وخوفها الأزلي من أن تفقده إلى الأبد. كانت المرة الأولى التي يعرف فيها معنى الضياع والوحدة، بعيداً عن دفء حنان امّه التي جعلته لا يحسّ بقساوة هذا العالم الّا بعد أن صار شابّاً يافعاً، الّا بعد أن صار جندياً يلبس الخاكي ويمسك البندقية متهيئاً للقتال. كانت الحرب تعكس

الوجه الآخر لهذا العالم. وجهاً بشعاً لا يعرف غير القتل والدمار. لم يفكر يوماً انّه سوف يقتل أحداً ما، يضغط على زناد بندقيته فيخرج الرصاص قاتلاً بلا رحمة، تنتشر الدماء نازفة هنا وهناك. (أنا لست قاتلاً) كان يقول لنفسه كلّما اشتدّ القتال وكلّما رأى رفاقه الجّنود يقتلون الكثير من الأعداء القادمين غاضبين يريدون قتلهم، لسبب يجهله، قاتلين الكثيرين من رفاقه الجنود، الذين يعرفهم ويعيش معهم في هذا الخندق، والذين لا يعرفهم من الوحدات العسكريّة الأخرى. لقد تساءل كثيراً مع نفسه (لماذا يريدون قتلنا؟ ماذا فعلت أنا كي استحق القتل؟ وماذا فعلوا هم كي يستحقوا القتل؟). لكنّه لم يجد الإجابة التي تعكس الحقيقة. لقد كان القتل بدون أسباب منطقية، وكلّ الأسباب المطروقة تعكس همجية الطّرفين رغم تقدّم تقنية الأسلحة الفتّاكة، التي تفتك بالأجساد وتتركها تتعفن في أرض المعركة، فتكون طعاماً للذئاب والكلاب المفترسة. مرّت ثلاثة أشهر منذ التحاقه من إجازة الزّواج. ولم ير زوجته مرّة أخرى الّا في أحلامه وفي خيالاته المشوشة. كانت الأيّام تمرّ بصعوبة تامة. ولقد كان هو ورفاقه في الخندق يبارك بعضهم البعض أنّهم مازالوا أحياءً لحد الآن ولم تمزقهم شظايا القنابل

الوهاجة التي تتساقط عليهم كالمطر. لم يدرِ هل هي الطائرات الصاخبة أم المدافع البعيدة المدى أم الهاونات السريعة أم الراجمات الفتّاكة أم هي سيل من الرصاص القاتل، لا شيء هنا غير الموت المتربص بهم. (ربما نحن رجس على هذه الأرض، وربما نحن من لا يجب علينا أن نمارس ما يمارسه الآخرون الذين يستحقون الحياة). كان يقول مُوَاسِيًا نفسه ورفاقه الجّنود في هذا المدى الممتد بين الأرض والسّماء. هذا المدى الذي يفترس الأجساد تاركاً الحزن والخوف مخيماً كثعبان أسود. الخوف يأخذه بعيداً، بعيداً جدّاً، حيث روح أبيه المحلقة في سماء الأبديّة. لكنّه الآن متكورٌ هنا في الخندق يلتمس العذر من أبيه طالبا منه الحماية من كلّ هذا الدّمار. لقد بلغت الصّرخات أوجّها، كلّما ارتفعت نيران القنابل بين الجنود في الخنادق. كابوس مخيف لا ينتهي. كان جسمه كلّه يرتجف حينما أستيقظ فزعاً، يتصبب عرقا، متحسساً في ظلام اللّيل بيده اليمنى أو اليسرى فيجد نفسه ماسكاً رجلاً مقطوعة أو يداً تقطر دماً لأحد من رفاقه الذين كانوا نائمين بجانبه فصاروا أشلاءاً مهشمة. لكنّ القدر أنقذه هو ولم ينقذ أحداً غيره. فتصرخ روحه في الظّلام تلتمس بصيصاً من الأمل. قبل أيّام

وحينما كان يقوم بواجبه أثناء الليل في حراسة الخندق محتضناً بندقيته، كانت عيونه تضيع في السماء الصافية الخالية من القمر. ينصت بقلب مرتجف لعواء الذّئاب في البعيد، مترقباً في كل لحظة هجومها عليهم، محتفلة بكلّ هذا اللّحم البشريّ الغارق في النّوم تعباً من أحداث الحرب الدامية. فيمتد الوقت طويلاً شاعراً أنّ وقوفه هناك سوف يدوم دهراً كاملاً، دهراً كاملاً من الخوف والتّرقب والغوص في الأفكار المشؤومة. وها هو الآن وحيداً في الخندق، متمدداً لا يستطيع أن يتحرك يميناً أو يساراً. مستنشقا رائحة البارود ورائحة الأجساد المحروقة. كأنّه نائم في قبر ضيق لا يتّسع لأحد سواه. لقد جمّد الخوف كلّ حركته في هذا الظلام الدّامس. منتظراً نور الصّباح ليعرف لماذا لا يستطيع الحركة. ليعرف هل هذا هو الموت أم أنّ الموت أكثر رعباً من هذا الرعب الذي يسكن روحه وعقله وقلبه المضطرب.

انقشع الظلام رويداً رويداً، وهدأت الأصوات الصاخبة للانفجارات والتشظّي. هبّت ريح باردة. أحسّ ببرودة تسري في جسمه، من رأسه حتى أخمص قدمه. لكنّه لم يستطع أن يتحرك حركة واحدة. لم يعرف السبب الّا عندما فتح عيونه ليجد نفسه محشوراً في الخندق

تحت صخرة كبيرة كانت قد تدحرجت أثناء الانفجارات العشوائية طيلة اللّيلة الماضية لتستقر عليه تاركة له مجالاً للتنفس فقط.

جندي

عندما وصلت إلى المنزل منتصف الليل التفت حولي كالأخطبوط. تركت الخندق الليلة، وعدت إليها محاربا مليئا بالرغبة والتجدد، أجهشت بالبكاء. لم أفهم لماذا عندما تلمسني تفوح منها رائحة الأرض. لبث الخوف بجسمي. هل أنا متمسك بوجودها قربي؟ لا أدري، كانت سلاحي الذي يحرسني من شرور هذا العالم، أو ربما دمائي المتدفقة التي أواصل من خلالها حياتي تحديا للحرب التي تطاردني منذ سنين لا أعرف عددها. ولكن ما يحدث اليوم أقرب إلى ذهني من الذي حدث بالأمس. وكل هذا يتركني أفكر بشيء ما أكره. أمضيت وقتا طويلا أحس بأن هناك، في الأفق البعيدة، أياما لا أكون فيها جنديا يسكن الخنادق في جبهات القتال، أعود لأرضي مزارعا بسيطا، مواصلا حياة خافتة كالماء، وليست مؤقتة كالزمن. أخرجت منديلها من بين الشراشف الحريرية المرمية بالطرف الآخر من السرير الحديدي الذي يحتوينا

ثم مسحت دموعها. أدركت حينها أنها غابت في الطرف الآخر مني، منتظرة حضوري أو غيابي، لست أدري، لقد علمتني تلك السنين الموت بحضور الآخر، يملئني الصوت الخافت، يخبرني فجأة، وأنا بين لحمها الدافئ:
- (ستبقى مختبئا في دهاليز أفكارك المشوشة مهددا بالقتل والدمار دائما بسب أخطاء من أخطئوا وأشعلوا نيران الحرب عبر التاريخ، بسبب رغبات السلاطين والملوك، والقادة العسكريين. انهض، ارتدي درعك المتروك قرب النافذة، ثم افتح الأبواب المقفلة الصدئة كي تصر صريرا يملأ الأرض ضجيجا).

(عندما كنت وحدي في انتظار مجيئك سمعت ضربات شرسة تكاد تحطم الأبواب والنوافذ، أحسست بالفزع يملأ كياني، ورأيت نفسي أركض هاربة من وحشة الليل ووجوه القتلة، وأخيرا انتهيت بين ذراعيك، انتهى هروبي ولكن خوفي لم ينتهِ) قالت هامسة بأذني. بقيت أرقب المكان متسائلا: للغرف الحجرية القديمة سقوف تملئها العناكب لا تحمي من يرفض قدره، رغم إحساسي بأن الليل في هذه القرية حقيبة مسائية، مهيأة لرحلة مدهشة في عربات القطار المسطحة ذي السقوف البارزة الذي يجتاز الأنفاق بطيئا كالسلحفاة، صاخبا كالحياة.

قالت: ابق معي... أنا خائفة.

وامتصّنا الليل بين كائناته الصاخبة، فأصبحنا أشباحا منفية في قرية نائمة. غير أن جسدها مكث بلا تراخ، ينحل ثم ينضح روائح تملأ رأسي أحلاما طوال الليل، ووجهها مازال متأرجحا أمامي، فأرى نفسي اعتصرها قاتلا الصوت الصاخب الذي يحكم على حياتي بالفشل الدّائم والهزيمة الباردة. وأخذ العمود في طرف السرير يخترق البياض الوهاج في وسط ثوبها. كان إبريق الشاي فوق المائدة. هذا المساء أنا تائه، وعاد الحنين إلى أمي يقيدني ثانية.

نهضت مرتديا ثيابي ببطء بعد أن أمضيت وقتا طويلا مستلقيا قربها. لقد عرفت منذ سنين بأن الأرض تشبه المرأة، كلاهما فم يبتلع الشعلة، تتقطع أوصال فوق السرير، تمسك العارضة الخشبية، ثم تقتل الرغبة العالقة بحافة قفل الباب المنتفخ. وقفت أمام النافذة أبصر الخارج. كانت السماء غائمة يرتفع الرعد فجأة تاركا صمتا فجائيا متناغما مع زخات المطر الناعمة، وهي تضرب النافذة. ربما الحقيقة رذاذ بلا بداية، وفي النهاية يجب أن يتلاشى خوفي الساذج من عدمية حياتي الموحشة. تلك هي الحقيقة إذن، ليست سوى رؤيتي

الواضحة الآن لخوفنا معا من الموت، وهو يهددنا منقضا علينا دونما تحذير أو إشارة خفيفة. ربما أنا أعيش رغبة في تأكيد قضيتي الخاسرة، وربما يهزمني اليقين، فأعود مستسلما للقتلة، تاركا لهم جسمي المغسول بالوحل. لماذا؟ هل أنا متعب؟

متى ابتلعتني الكلمات، فأصبحت كائنا يتشظى بكل لحظة داخلا إلى عالم غامض مثل عصفور صغير تعمد الهرب من الطيور الغاضبة غير المتوقعة، ثم يأتي الصباح، صوتا حزينا مطأطئا، مشدودا بشراهة صراعي. أعادتني رائحة ثوبها. ورأيتها، تبدو جميلة جدا، تبكي كلما تركت وحدها، كانت إدراكا بلا رغبة، ثقيلاً لكنه لا يبقى. مرة أخرى أكتم غضبي داخل نفسي التي اعتادت القرف. فأصبحت وديعا كالحمل، مبصرا الليل والمطر الغزير الذي يغمر القرية، منتظرا اللحظة التي أقرر فيها خروجي تحت المطر، وأنا أسأل: (لماذا كل هذا الشقاء؟).

عودة جندي

دخلت المدينة ليلا ببدلتي العسكرية الممزقة وخوذتي المثقوبة. كنت متعبا جدا، أقدامي تؤلمني ورأسي يكاد يهشمه الصداع. كلما تذكرت أمي ينعصر قلبي. يا إلهي ما هذا الدمار. أغلب البيوت قد تهدمت بالقصف العشوائي للمدافع والطائرات. أخذتني رجفة مفاجئة وأنا أقترب من منزلنا. رغم هذا الظلام الحالك، ورغم كتل الدخان الخانقة في كل مكان. إلا إني أعرف الطريق إلى البيت تلقائيا. أبطئت خطواتي خوفا من المفاجئة التي تنتظرني. لكنني وصلت أخيرا. أرعبني ما رأيت، الأبواب مشرعة الشبابيك مفتوحة والزجاج مكسر. دخلت بتوجس مردد أدعية قد حفظتها من أمي عندما كانت ترتلها لي بصوتها الشجي قبل أن أنام، فأحلم أني طير من طيور الجنة، أحلق من شجرة إلى أخرى، وأشرب من انهار اللبن والخمر، تغمرني البهجة من كل هذا الجمال الإلهي الذي لا أستطيع ان أصفه لأحد عند استيقاظي في

الصباح. ازدحمت الأسئلة في رأسي، أين ذهبوا؟ أين أمي وأبي؟ أين إخوتي وأخواتي؟ اشتقت إليهم، منذ أن ودعوني يوم التحاقي لوحدتي العسكرية قبل شهر أو أكثر. لم أستطع ان أنسى دموع أمي وحزنها ولا خوف أبي الذي حاول أن يخفيه عني، ولا قبلات إخوتي وأخواتي. مسحت دموعي وانا أدخل من غرفة إلى أخرى مناديا عليهم الواحد بعد الآخر فيرجع الصدى ألي، لكني رغم السكون والظلمة التي خيمت على قلبي لا يزال الأمل يرشدني ويأخذ خطاي إلى دفء وجودهم. وصلت أخيرا إلى غرفتي. فرأيت بعد أن اعتادت عيني الظلمة أمي، جالست على سريري وحدها. الحزن جعلها تبدو كعجوز معمرة. أبكتني نبرات صوتها الحزينة عندما قالت:

- أخيرا وصلت بني... أتعبني انتظارك.

ارتميت بين أقدامها وبكيت، جسمي كله يرتجف وأرتفع بكائي عاليا. لم أستطع السيطرة على نفسي. كانت أنفاسي تخرج بشدة، وأحسست بألم في صدري. هدئت بعد فترة لم أعرف مدتها لكن دفء يد أمي وهي تمسح على رأسي إعادة لي بعض الطمأنينة. سألتها بعد صمت طويل عن أبي وإخوتي فأجابت:

- لم يبق أحد غيري. أسلي وحدتي بانتظارك.

مسحت دموعها وقبلتها على رأسها، تمددت على السرير بعد ان وضعت رأسي في حجرها وأغمضت عيني. أردت أن أخبرها عن كل الذي حدث لي في الحرب. عن ذلك الهجوم العنيف الذي لا يمكن للكلمات أن تصف بشاعته. عن زحفي بين القتلى والجرحى. عن ذلك الجندي الذي مزقته الشظايا. رأيته عندما اشتد بي العطش وأخذت زمزميته فسمعت صوته الخافت يطلب ان أسقيه قليلا من الماء. شربت الماء قبل أن أسقيه وعندما قربت الزمزمية من فمه كي أسقيه وجدته قد مات. أردت ان أخبرها عن اللصوص الذين سرقوا بندقيتي بعد أن فتشوا جيوبي الخاوية ولم يجدوا نقودا. لكن رائحتها قد غمرتني فنسيت الكثير من آلامي وتعبي ورحت في نوم عميق جدا.

عندما استيقظت في الصباح وجدت نفسي متكورا على السرير ورأسي لم يكن في حجر أمي وإنما على حافة السرير.

الفخ

عندما اجتاز الممر المتهدّم لم يكن هناك ثمّة صوت غير الظّلام اللّيلي ولهاثه المبحوح وخشخشة الأكياس والملابس الممزقة التي تدوسها أقدامه ورائحة الجثث المتسرّبة عبر رطوبة الجدران. اكتشفت أقدامه التي هدّها التّعب الجثّة المرميّة بجانب البركة القذرة، جثّة امرأة مغتصبة بعنف. أطلق صوتاً غريباً من فمه المملوء بلعاب يسيل كلّما ازداد تشبّعا برائحة الجثّة... وجبة شهيّة... أهتز فوقها كراقص زنجي محتفل بمولد جديد، منتش باللّحم البشري الميت، تنهش أسنانه القويّة الجّسد الممتلئ حيوية قبل أيّام مضت والمرمي على حافّة البركة الآن، بعد نضال دام لحظات ضد وابل الرصاص. لم يستمر احتفاله بالجّسد الشهي إلا دقائق مشتتة، أطلقت على أثرها رصاصتين مصوبتان بدقّة. ارتمى الجّسد النّازف فوق الجثة مطلقا عواءً عميقاً متهدجاً كصوت الألم البشري. ساد الصّمت المفاجئ منسجماً للحظة مع

كثافة العتمة، اخترقه صوت بشري انتشر صداه فوق الجدران المهجورة "تبّاً لك أيّها النتن ولهذه الحياة القذرة التي أصبحتم فيها آكلي لحوم البشر". بصق الرّجل وتحرّك باحثاً عن الجثّة، احتراما للموت وليس للإنسان الذي أصبح قذراً يموت ككلب ويترك عارياً، تلتهمه الحيوانات الأخرى. تعثرت أقدامه واقتربت منه. كانت أصواتهم رنّانة، همجيّة، فسقط مرتطماً بوجه بارد، ارتمى سريعا على بندقيّته المرميّة بجانبه. كان القتال قصيراً، عنيفاً، اكتشف في تلك اللّحظة أنه يمتلك قوّة رهيبة لم يعرفها من قبل مدفونة بأعماقه خرجت دفعة واحدة ضد هذه الكلاب الشّرسة التي تهجم دون خوف، يدفعها الجّوع الذي أعاد خلقها كائنات قاسيّة، يتملكها التّوحش أمام كائنات الدّم واللّحم والعظام. انتهى القتال بخمس رصاصات عشوائية أطلقت مرة واحدة، تلاها الصّمت اللّيلي المعتاد، تبدده أصوات الكلاب البعيدة المحتفلة بانتصارها، بسيطرتها على اللّيل، زارعة الرّعب فيه.

شعر الرّجل بالموت القريب. حاول أن يتذكّر كم مضى عليه من الوقت. ما الذي حدث وما السّبب في وجوده هنا. كل شيء مشوش، الهواء البارد الرّطب، الأرض الموحلة، الظّلال الباهتة، روائح الموت المنتشرة

في كلّ مكان، والجثّة التي تتعفن. الحياة تهرب سريعا ليبقى الموت الكابوس الجاثم للأبد. حاول جاهداً أن يبعد كلّ هذا عن رأسه، حاصراً تفكيره في الزّمن القليل الباقي لديه. فتح عيّنيه بصعوبة ليرى الأشياء من حوله كثيفة للغاية، جدران مهدّمة تبدو عالية بشكل لا يطاق، كلاب مقتولة تزدحم جثثها المغسولة بالدماء على حافّة الوحل. حاول الهروب من كوابيسه الآسرة بعدّ الكلاب المقتولة، أضنته اللّاجدوى. كانت تبدو كثيرة.. كثيرة جداً. لم يحاول قط النظر إلى المرأة المقتولة، أحسّ بالألم يلتهم جميع أنحاء جسّمه. أتعبه النّهوض وظلال الجدران المنخورة التي أطبقت عليه كمخالب نسر تخنقه بقوّة كلّما حاول الاسترخاء، مستسلما لآلامه وشبه الغيّبوبة التي يعيشها، والشّعور العنيف بالموت كيّ يصبح جثة تتعفن سريعاً فتأكله الكلاب. يجب عليه الخروج من البناء المهجور بأيّة وسيلة. ولم يكن هناك غير الزحف بدمائه المتخثرة وآلامه الحادّة. أحسّ برأسه ثقيلاً... ثقيل جدّاً. سقط بعدها متعبا، يئن تارةً ويصمت تارةً أخرى، محاولاً الزّحف مرة أثر أخرى فاقداً إحساسه بالوقت، يتملكه خياله المضطرب المشوش. تراءت حوله صور لم يعتدها من قبل تدور وتدور بلا رحمة، كلاب شرسة

يقطر من فمها الدّم، تأكل بوحشيّة الجثث المنتشرة على جوانب البرك الطّينية، أو تهجم على الأطفال المذعورة، وتلك المرأة التي تركته يحبُّها بعنفوان الحياة والموت معاً. حاول التشبث بكلّ ما يمكن أن يؤكد له بأنّه لم يمت بعد، يعيش معالجاً جراحه كيّ يناضل مرّة أُخرى ضد الكلاب التي شاركت في افتراس جثّة المرأة التي علّمته حب الحياة، تاركة في أنفه رائحة جسّمها الحيّ، لا تفارق جسّمه أينما ذهب. الوقت يمرّ سريعا وقواه منهارة الآن. استحالت الجّثث والجدران أشباحاً طويلة جداً تاركة هذا الكائن وحده في انتظار الموت، محاولاً عبثاً الصّمود ضد الألم والجّوع، حالماً للحظات قليلة بالخروج من هذا المسّتنقع الموحش.

استجمع آخر شتات قوته المتلاشيّة، وبدأ الزّحف الصّامت، دون أن يفكّر في هدف ما سوى المحاولة الأخيرة للخروج بعيداً عن هذا الكابوس العفن. استنشق الهواء الجّاف بعد اجتيازه آخر المتاهة المهّجورة. غمره فرح طفولي، واستلقى وقتاً طويلاً على الأرض الباردة.

أحس أخيراً أنّه يسّتطيع أن يفتح عينيه الآن كيّ يستمتع بحلاوة الانتصار، وقد أصّبح حرّاً بعيداً عن ذلك

السّجن النّتن والكلاب التي تهجم بوحشيّة لتأخذ فريستها المنتظرة هناك.

لمّا فتح عينيه، وحدّق حوله ببرود وجد نفسه محاطاً بقطيع من الكلاب الجائعة، يسيل اللعاب من فمها المفتوح دائما.

مرارة الذكرى

ضغطتُ بكلتا يديّ على قبضة عصاي. أحاول السّيطرة على الرّجفة في كل أطراف جسمي. كلّما انقبض قلبي تنهمر الدموع من عيني تغسل تعرجات وجهي الجاف. راقبتُ قطرات دموعي وهي تتلاشى في الهواء راسمة في فضاء الغرفة وجه أكبر أبنائي، فرحتي الأولى، وحزني العميق. وكأنّما يضعني ألمي واشتياقي أمام مرآة صافية، لكنّ عينيّ المنهكتين تخشى النظر، وتشفق من رؤية وجهي الباكي. ورغم كلّ هذه المتاهة، لم أزل تحت تأثير خمرة الحبّ المفقودة ومرارة الذكرى، مع كلّ سنة مضت عميقا للداخل المنسي، مع كلّ شهر راحل في غياهب المجهول، مع كلّ أسبوع انتهى وصار حلماً غامضاً، مع كل يوم تلاشى غبار يرسم صوراً هلامية تترك الأثر العميق في هذا القلب الضّعيف، الذي أحسّه ثقيلا جدا كلّما تذكّرت صباح ذلك اليوم المشؤوم حينما دخلت إلى غرفته. فرأيته واقفا أمام المرآة، جميلاً، مهيباً،

يرتّب قيافته العسكريّة. كم أحبّه يا إلهي، فبمجرد أن أنطق اسمه تتسارع ضربات قلبي وتسري الرجفة في كل أنحاء جسمي، وأشعر بروحي تنتزع من جسدي الضعيف. بقيتُ واقفة أنظر إليه مبهورة بجماله الأخَّاذ، مُهيَّأ نفسه للالتحاق هناك، في صحراء الخليج العربي المتوهج. حيث قطعات الجيش، ينتظرون لحظة إصدار الأوامر لمحاربة جيوش الثلاثين دولة، القادمين من كل مكان، تقودهم أكبر دولة في العالم لقتال دولة واحدة... (لا... لن تذهب) ارتفع صوتي عالياً في أرجاء الغرفة دون تفكير، ووقفت أمام بابها أحاول عبثا أن أمنعه، مثل قطة شرسة خائفة على صغارها، رغم أني كنت أعرف أنّي لن أمنعه أبدا. لن أستطيع أن أفعل ذلك. لم أكن مجنونة كي أفعل ذلك. ولست غبية كي لا أقدّر عاقبة إن فعلت ذلك. أضنتني الحِيرَةُ. فخوفي عليه جعلني أصرخ رافضة ذهابه هناك، إلى بوابة الموت الملتهبة. وإن منعته حقا فلن أجني سوى الخذلان له. جاعلة منه جندياً هارباً، مطارداً من قبل رجال الطاغية الذين لا يعرفون سوى التّبختر ببزّاتهم العسكرية ومسدساتهم اللّماعة، مستعدين بأيّة لحظة أن يدوسوا بأحذيتهم على كلّ من لا يطيع أوامرهم، وكل من لا يقدم لهم الولاء الأعمى. انهارت

قواي، أحسست بالعجز، فوقعت على الأرض أبكي بعد أن هزمني الخوف. أحسست بدفء يديّه، انحنى عليّ، أمسكني من أكتافي. لن أنسى ما حييت تلك اللّحظة الجميلة المؤلمة عندما تلاقت عيوننا، فغبنا بنظرة طويلة جداً كأنها دهر. ثم قبّلني على رأسي، ومسح دموعي، وقال بتوسل (أماه ادعي لي أن أعود سالما). لكنّه لم يعد. كنت قد عرفت أنه لن يعود، بمجرد أن نظرت في عينيه. لذلك كظمت حزني وبكائي أياما وليالي. سنون طويلة مرة وما زلت كل يوم أجلس ساعات بجانب نافذة غرفتي المطلّة على الشّارع، أدعو وابتهل إلى الله.

لوحة على الجدار

نظر إلى اللوحة المعلقة على الجدار الباهت الألوان فأخذته إلى زمن بعيد جدا، افتقده ولا يعرف عنه الآن أي شيء. كأنما أُضيئت ذاكرته المظلمة بنور الذكريات المفقودة، فتلاشى ضباب النسيان رويداً رويدا، خفق قلبه الضعيف وأستيقظ فيه حبه المفقود لأفراد أسرته الواحد تلو الآخر. في البداية ظهرت امّه الحنونة في سماء ذاكرته المشتتة ورآها جالسة وسط الغرفة قرب المدفئة النفطية، واضعة أخاه الصغير في حجرها، تهزّه وتغني له أغنية جميلة جداً بصوتها الشجي كي يغفو مبتسماً محفوظاً بملائكة الرحمن. وفي منتصف الغرفة وضِعَ فانوساً ينشر نوراً باهتاً مشتتاً الظلام، في ليل شتائي بارد. ثم رأى أخته التي تكبره بسنتين واقفة خلفه وتعكس بكفي يديها ظلالاً تبدو على الحائط أشكالاً لطير محلقٍ في السماء، أو أرنب راكض في البرية، أو حية تسعى، بينما كان هو يلاحق الظلال مبتهجاً. أحس بثقل يضغط

على صدره. خنقته العبرة ولم يستطع السيطرة على انفعالاته فبكى. انهمرت الدموع على خديه كالمطر. لقد رآهم في اللوحة مجتمعين ينظرون إليه نظرات فيها من الحنين ما يجعل قلبه حزينا جداً، متمنين أن يكون معهم الآن أينما كانوا، كل الذين أحبهم وافتقد دفء وجودهم، والذين بالتأكيد هم سعداء، يلتفون حول المدفئة النفطية، يشربون الشاي وينصتون لحكايات جدتهم قبل النوم. والأهم من كل هذا عندما يلعبون ويقفزون هنا وهناك. أبتسم رغم مرارة الذكريات ورغم اضطراب ضربات قلبه، ورغم شدة انفعالاته التي لم يعد يسيطر عليها. (ولكن لماذا؟) سال نفسه محاولاً التوغل في غابات ذاكرته المكتظة بأغصان الأشجار المتداخلة مع بعضها لدرجة تمنع عنه وصول ضوء الشمس الدافئ، كي يصل إلى جزء يسير من الحقيقة التي ربما تنقذه من هذا الضياع اليومي، تنتشله من غربته وعزلته المؤلمة كجراحه التي مهما مرّ عليها الزمن لا تزال تؤلمه وتضغط على كل جزء من جسمه المنهار. لقد افتقدهم الآن وهذا ما جعله يبكي بصوت أحسّه مرتفع جداً، كأنه نحيب محبوب قد فقد حبيبه، نعم لقد افتقدهم وبشدة. منذ ذلك اليوم الذي حاولت امّه أن تمنعه من الالتحاق هناك إلى بوابة

الجحيم، في صحراء الربع الخالي الذي يلتهم أجساد الجنود التهاماً. لم يعرف كم يوماً ظلّ يمشي فوق رمال الصحراء ببسطاله الممزق وخوذته التي ثقبت بشظية قنبلة أو رصاصة قناص، ربما يوم، أسبوع، أو ربما شهر، تحت المطر الأسود والبرد القارص، وتحت لهيب قنابل الطائرات التي تحلق فوقهم زارعة الخوف والذل في نفوسهم المهزومة. (أمّاه) ارتفع صوته عندما تذكر ذلك المشهد المخيف، لقد كانوا آلافاً وربما أكثر من ذلك بكثير من الجنود الهاربين، الراكضين، المفزوعين، بثيابهم الممزقة وجراحهم الملتهبة وببنادقهم الفاسدة. وبين لحظة وأخرى يدوس جندي أو اثنان أو أكثر على لغم مدفون، ينفجر فتتلاشى الأجساد إلى شظايا صغيرة جداً، ولا يبق منها شيئاً سوى رائحة البارود الخانقة.

(ولكن يا أمّاه) أخذته هذه الفكرة التي انفجرت في ذاكرته مثل لغم منسي في تلك الصحراء التي تشبه قاع الجحيم، وأيقظت فيه حنين افتقده منذ سنين طويلة. (ولكن يا أمّي لو بقيتِ مصرّةً على عدم ذهابي لتلك الحرب الملعونة لبقيتُ معكم وعشت تلك اللحظات الأخيرة ورأيتُ ما حدث) شهق شهقة تشبه زفرة الموت، وسرت رجفة قوية في جميع أنحاء جسمه، أحس بالبرد

يتغلغل بين عظامه الهشة، عندما ظهر أمامه أنقاض منزلهم بعد أن دمرته قذائف احدى الطائرات ولم ينجوا منهم أحد. كأنه يرى فلم سينمائي مرعب في ليلة مظلمة. رأى نفسه واقفاً أمام الأنقاض ولكن بساق واحدة، ارتمى بلا شعور وأخذ يزيل الأحجار والأنقاض جانباً، علّه يجد يد أو ساق امّه المقطوعة أو جسدها أو جسد أحدٍ من أخوته. لكنّه لا يجد غير الكوابيس التي تقضُ مضجعه وتجعله ضائعاً لا يعرف حقيقة ما حدث لهم فعلاً. وشعر بطريقة ما انّه يريد وبشدّة، أن يكون بينهم، وأن يبقى معهم إلى الأبد داخل هذه اللّوحة الجميلة حد البكاء. حيث كل شيء قد توقف بشكل نهائيّ وأبديّ. كانت لحظة مميزة أحسها وعاشها مثل الحلم، عميقة لكنّها بعيدة عن الحقيقة.

دخلت الممرضة للردهة، رفعت اللوحة المعلقة على الحائط أمام سريره حيث كان ممدداً ووضعتها على الأرض في زاوية الردهة، قائلة:

- يكفي اليوم، لقد أرهقت نفسك.

ما أن رآها حتى تلاشت كل تلك الذكريات من رأسه، فأصبحت ذاكرته صفحة بيضاء لا شيء فيها. اقتربت منه،

يبدو عليه الإرهاق الشديد، الدموع ما تزال تنهمر من عينيه على تجاعيد وجهه الشاحب.

- أنّك تبكي وهذا جيد جداً لك كي تتحسن.

مسحت دموعه بمنديل ورقي لكنّه ظلّ مستغرقاً، ينظر إليها باستغراب. أراد أن يسألها من هي، ولماذا تجلس بجانبه على سريره، وتتحدث معه بحميمية محبوبة، وتخبره عن أشياء غريبة جداً، لكنّه نسي، فأحس بفراغ وتشتت لدرجة الألم في رأسه، وازداد توتراً. حاول أن يصرخ كي يُسكت كلّ هذا الاضطراب والتشتت، لكنّه شعر بالاسترخاء التام بعد أن انتشر دواء الحقنة التي حقنتها له قبل لحظات في جميع أنحاء جسمه. أغمض عينيه وأستغرق بنوم عميق.

الطريق إلى المقبرة

(يا إلهي... ما الذي فعلته بنفسي) حدث أحمد عبدالله الحسيني نفسه وهو ينظر للسماء، منتظرا هبوط الظلام كي يجتاز الطريق إلى المقبرة القديمة، والذي يحيط به الأشجار العالية المتشابكة الأغصان فتبدو كأنها سور يحمي هذا الطريق الترابي الممتد بين البساتين الخضراء. يخيم على المكان السكون التام، لا شيء هنا سوى هبوب الريح وحفيف الأشجار، وبين فترة وأخرى يرتفع نعيق غراب قرب أحد القبور القديمة المتهدمة. عندما أشتد الظلام تذكر جلسته في الصباح قبل أسبوع في المقهى، بين رفاقه المعجبين بقوته وشجاعته المعروفة في الكثير من المشاجرات التي بين فترة وأخرى تدور في القرية أو في القرى المجاورة فيكون هو البطل فيها. كل أبناء القرية كانوا تحت حمايته. يحبونه ويعرفون أنه قد ورث الطيبة والشجاعة مع الشهامة من آبائه وأجداده الذين توارثوا حماية أبناء قريتهم الصغيرة من غير أن

يأخذوا شيئا غير حب الأهالي لهم وكلمات الشكر والمديح. كان العجوز سلمان الأعور منهمكا في حديثه المعتاد، يحكي أخبار الجن والعفاريت وأرواح الموتى الذين يتخذون من طريق المقبرة مأوى لهم، ولا أحد يجرؤ على اجتيازه ليلا، خوفا أن يظهر له عفريت مشاكس، أو جني شرير، ينفخ بوجهه ليزرع في رأسه العته أو الجنون، أو تظهر له روح حزينة تبحث عن قاتلها.

في ذلك الصباح قد أوغل في الحديث كثيرا، إلى الحد الذي أيقظ في نفس أحمد عبدالله الحسيني التحدي فقال لسلمان الأعور بغرور أربك الجالسين في المقهى:

- أنا لا أخاف إلا من الذي خلقني. أما هؤلاء الذين تحكي عنهم فلن يحركوا ذرة خوف عندي.

- ولكن يا سيدي لا تقل إنك تستطيع اجتياز طريق المقبرة في الليل لوحدك.

- بل أستطيع.

انتفض قائلا ضاربا على جهة صدره الأيسر بكفه الأيمن، متباهيا بنفسه التي ترفض الخوف من قوى الظلام والمجهول.

- سوف أذهب في الليلة التي يغيب فيها القمر، آخذا معي عمودا حديديا أغرزه في منتصف المقبرة ثم أعود إليكم هازما هذا الخوف المتراكم في صدوركم منذ آلاف السنين.

لم يصدقوا ما سمعوا. نهضوا والتفوا حوله طالبين منه أن يتراجع عن قراره المخيف هذا. لكنّه أبى الّا أن ينفذ ما قاله لهم، عازماً على قتل خوف الأهالي من هذه الأوهام القديمة جداً.

اشتدت ضربات قلبه. وأخذته الرجفة فجأة من رأسه حتى أطراف أصابع قدميه، عندما أنصت لهبوب الريح وهي تُحرّك أغصان الأشجار وطيّات جلبابه العريض فتولد صوت يخترق سكون القلب ويثير الإحساس بالخوف والتوجس. صوت خافت يرن في أذنه كأنّه هديل حمامة حزينة. شد على العمود الحديدي بقبضته اليمنى وتحرك ماشياً في طريق المقبرة، لا يرى شيئا سوى ظلام الليل وظلال الأشجار العالية وخيالات مبهمة كثيرة ترسم أشكالاً غريبة لم يعتاد عليها. وكلّما توغل في الظلام أكثر اشتد صفير الريح التي صارت ثقيلة جداً وباردة. انقبض قلبه عندما لمح خيالاً سريع الحركة يقفز من شجرة لأخرى بخفة كأنّه قرد لكنّه شفاف جداً. ثم سمع صوت

بنت خائفة تستنجد به. التفت شمالاً ويميناً، لم ير شيئا، لكنّه سمع صوتها المفزوع يرن في أذنه الآن وسط هذا الظلام الذي يَمْلأُ القلب خوفاً وتوتر. وتذكرها، قبل سنوات لا يستطيع الآن أنْ يعرف عددها، عندما أنقذها من اللصوص الثلاثة الذين اختطفوها وأتوا بها هنا حيث لا أحد يتجرأ أنْ يجتاز هذا الطريق، كي يغتصبوها بين القبور. أبهرها فعلاً، لم يستطيعوا أنْ يواجهوا شجاعته. هربوا وتركوها مفزوعة، لا تعرف كيف تجازيه على ما فعله من أجلها. والآن بعد أنْ أيقظ هبوب الريح الخافت وتراقص أوراق الأشجار ندمه وحزنه من فعلته الشنعاء. (لماذا فعلت بي فعلتك الخسيسة، انبهرت بك كفارس شهم انتشلني من بين الأوغاد، لكنّك لم تكن سوى...) أيقظ صوتها الحزين كل مخاوفه النائمة في أعماق نفسه لكنّه عندما بحث عنها في الظلمة لم يجدها، تراءت له بملابسها الممزقة وجراحها النازفة كالخيال الثقيل الذي يعصر القلب ويجعل الأطراف كلّها ترتجف.

مسح العرق عن جبهته التي أصبحت ملتهبة جداً، وحاول رغم ارتجاف جسمه أنْ يواصل طريقه نحو المجهول. لم يرَ شيئاً مخيفاً وإنّما كانت خشخشة الأوراق اليابسة تحت أقدامه تثير الرعب لدرجة التصدع

في رأسه. ارتفع فجأة بكاء طفل خائف. وقف حائراً، متردداً، وكلّما ارتفع بكاء الطفل أكثر ينعصر قلبه ويشعر ببرد يتغلغل في أنحاء جسمه، ويتذكر وجه أمه الحزينة، عندما كانت تمضي من الليل شطره تبكي وتندب حضها وتسأله بصوت يجعله يضع رأسه بين قدميه ويبكي معها:

- كيف تركت أخوك يسقط في أعماق البئر... لقد تركته بحمايتك.

تخنقه العبرة ويستغرق في البكاء محاولاً بذلك أنْ ينسى كيف أتته الجرأة لدفع أخيه الذي يصغره ثلاث سنوات في غيابة الجب. وعندما علم أبوه ورجال القرية وأخرجوه وجدوه قد مات. لقد أخذ الخوف والتوتر منه مأخذاً عظيماً. وكلّما اقترب يسمع أنيناً خافتاً من بين القبور، ثم يتحول الأنين إلى سؤال يضغط على قلبه بقوة (لماذا تركتني مفزوعا من الظلمة، ناديتك قبل أنْ تقتلني الخفافيش... أخي، أخي حتى اللحظة الأخيرة قبل تكتم أنفاسي أجنحة الخفافيش المهتاجة).

تيقن الآن أنّ شقاوته قد ساقته إلى هذا القدر المحتوم، حيث يتجلى له أرواح كل الذين ظلمهم بغروره المفرط وهو يمشي بخطوات ثقيلة نحو المقبرة الملعونة. تعاظم إحساسه بالوحدة خاصّة وهو يحدق في سواد الليل فلا

يرى سوى خيال أشباح بصور أشخاص شتى، ربما قد رآهم من قبل ونسيهم في خضم الأحداث اليومية والآن يظهرون له ولكن بأشكال مرعبة جداً. لكنّه رغم ذلك لم تفتر عزيمته، ولم يفكر أن يعود، ذلك لأنه قد أقنع نفسه منذ البداية بأنه عندما يعود سوف يكون أضحوكة بين رفاقه الذين يفتخرون بشجاعته ويتغنون بها. لكنّهم - وهذا ما فكر به الآن- لم يواجهوا كل هذا الرعب والإحساس بالوحدة في هذا المكان الشديد السواد. هذا المكان الذي يسمع فيه بين لحظة وأخرى صراخ لفتيات ربما قد اغتصبن منذ زمن بعيد ودفنّ هنا دون أن يعلم بهنّ أحد، أرواحهن تحلق هنا إلى يوم القيامة، فتزرع الرعب في كلّ قادم غريب ساقه حظّه السيء لهذا الظلام الدامس.

وصل أخيراً بعد صراع عنيف، بين أن يعود سالماً لامّه المسكينة التي تنتظره على أحرّ من الجمر، أو أن يحارب جنود الظلام هذه، رغم ما يشعر به من رعب قد تجاوز الحد الذي يمكن أن يتجاهله، أو أنْ يقنع نفسه بالشجاعة المفقودة. عرف أنّه الآن في المقبرة عندما أرتفع نعيق الغربان عالياً في الظلام، أفزعه ذلك النعيق وكاد أنْ يقف

قلبه فلعن اللحظة التي قرر فيها المجيء هنا، إلى جسر الجحيم هذا.

استنشق رائحة غريبة لكنّها قوية ونفاذة جداً تيقن أنّها رائحة الموت المهيمن هنا منذ الأزل، وأنّها نذير شؤم فتعثرت أقدامه وكاد أنْ يقع لكنّه تمالك نفسه أخيراً. عندما أحس انّه وسط المقبرة، رفع عمود الحديد عالياً وأنزله بكل ما بقي لديه من قوة في أرض المقبرة. صارخا بكل الأشباح التي تحلق حوله وبصوت مرتجف لكنه مرتفع (من كان منكم بلا مخاوف فليغرس العمود في عمق المقبرة). أمسك بصخرة قريبة من العمود وأخذ يطرق على رأس العمود حتى أنزله في عمق الأرض إلى النصف. شاعراً بعمله هذا أنّه قد قتل الخوف وطرده من نفسه المسكينة.

عندما هم بالخروج من المقبرة لم يستطع الحركة، أمسكه أحد ما من جلبابه وسحبه باتجاه القبور المهدمة. عفريت ربما، أو جني ربما، أو ربما احدى الأرواح المعذبة التي تنتظر اللّحظة التي تنزل غضبها وانتقامها منه. التفت مفزوعاً فرأى رغم الظلام الحالك أشباحاً ضبابية مخيفة تهجم عليه دفعة واحدة، تصرخ بوجهه وتهزأ من خوفه ومن تعرقه رغم الرياح الباردة. حاول أن

يضربها فتلاشت ضرباته في الفراغ. وجد نفسه يصارع صفير الريح، لكن ضحكاتهم وصراخهم الغريب صار مرتفعاً جداً. لم يبق له سوى الهروب. أراد أن يفلت نفسه منهم، وهمّ بالركض لكنّه لم يستطع. أحس بنهايته قد اقتربت، ولكن رغم الفزع الذي يعيشه الآن وهو بين هؤلاء الأشباح والعفاريت الشريرة تذكر لِلَحظة بكاء امّه وحزنها عليه. لقد نهته عن هذه المغامرة الخاسرة. لكنّه لم يطعها وأصرّ على المجيء رغم الخوف الذي أحسّه قبل هبوط الظلام. ارتفع صراخه عاليا متوسلاً ان يتركوه، لكنّه عبثاً يحاول. أحس بأيديهم تخترق صدره وتسحب قلبه التي تسارعت ضرباته بسرعة مهولة. فتح عينيه فرأى بينهم البنت التي اغتصبها وأخاه، كانا غاضبين جداً. انهار على الأرض مستسلماً لأي شيء يحدث الآن. ارتفع نعيق سرب من الغربان وحلقت عالياً في السماء الداكنة.

عند شروق الشمس كانت أمه قد جَمّعتْ كل رفاقه الذين ينتظرون عودته. هبوا جميعاً حاملين العصي ذاهبين للمقبرة.

وجدوه ميتاً، ولم يصدقوا ما رأوا، كان قد وضع دون أنْ يدري العمود الحديدي على طرف جلبابه وغرزه لنصفه في الأرض.

تقمص

مرّ وقت طويل جداً، وما يزال واقفاً بجانب النافذة، منصتاً لصوت المطر المنهمر بغزارة. لم تكن لديه الرّغبة في الخروج من المنزل. تمنّى أن يمضي اللّيلة قربها. يشرب قدحاً من الشاي منتظراً رحيل اللّيل بهدوء، بعيداً عن الخوف والتّرقب من هذا المجهول الذي ينتظره في الظلام.

- هل تتركني وحدي؟

أيّقظه صوتها من استغراقه الطّويل. متأمّلاً الطّريق الطّيني الّذي سيجتازه تحت المطر المتساقط والبرد القارص، والإحساس الخافت بالموت المؤجل الحاضر في كلّ لحظة.

- هل تتركني وحدي؟

التفت إليّها، وأحسّ أن شيئاً ما يتقلّص في معدته، حرارة تلتهب في داخلها، ربما. حرّك شفتيه فلم يخرج صوته. حاول أن يبقى صامتا. يقبّلها ثمَّ يخرج لقدره

الـذي ينتظـره. كانـت جالسـة علـى حافّـة السّـرير، واضـعة يـديّها بـين فخـذيها، وتحـرك قـدميها علـى الأرض هنـا وهنـاك. رأسـها مـنخفض، تتـابع بعيونهـا حركـات قـدميها التي تتحرك كبندول ساعة قديمة.

- أنا خائفة.... ابق معي الليلة.

- يجـب أن أذهـب... أغلقـي الأبـواب والنّوافـذ... وأضيئي المنزل فيتلاشى خوفك.

- ألا تستطيع أن تبقى؟

- لا أستطيع.

خرج من المنزل، لم يكـن أمامه غير أن يجتاز الطّريق الطّينـي الطويـل، فـي هـذه القريـة النائيـة. المطـر غزيـر، والظّلمـة قاتمـة. لا شـيء سـوى صـوت الرّعـد ونبـاح الكلاب وصفير الريح. وخطواته المغروزة في الوحل.

بقيـت وحـدها، تجتـرّ أفكارهـا المخيفـة، جالسـة علـى حافّة السّرير. واضعة يديّها على رأسـها. لـم تعرف كـم مرّ عليّهـا مـن الوقـت. امـتلأ رأسـها بصـور مشوشـة. أخيـراً ارتمـت علـى السّـرير، منصـتة لانهمـار المطـر الـذي يطـرق الأبـواب والنّوافـذ. إيقـاع رتيـب، نغمـات خافتـة، متواصـلة مـع وقـع الرّعـد الثّقيـل والبـرق الخـاطف. نبـاح الكـلاب يرتفع بين فترة وأخرى، يشارك في هذا اللّحن المخيف

الّـذي لا ينتهـي. أغمضـت عينيّهـا وحاولـت أن تغفـو، أن تهـرب مـن الخـوف الجـاثم علـى صـدرها. لكنّهـا تـذكّرت بشدّة تلك الحكاية القديمة التي حكتها جدّتها لأمها في ليلة من ليالي الشتاء، سمعتها عندما كانت طفلة نائمة قرب أمها، دون أن يعرفا أنّها مستيقظة، تنصت وتتخيّل كلّ كلمة تنطقها جدّتها. عن تلك المرأة التي يتركها زوجها وحدها في ليلة ممطرة، في تلك القرية النائية، بين أنياب الأشباح الشّريرة. إنّها الآن تتخيلها وتشعر بخوفها ورجائها لحظة بلحظة، بواقعية مشؤومة. كأنّها تقمّصت روحها، ارتفع وقع الأقدام خارج المنزل. ثم طرق عنيف علـى البـاب الخشـبي. طـرق متواصـل. مـع همهمـات وأصـوات مخيفـة، دمْدَمَـة الـريح، زمْزَمَـة الرعـد، وحفيـف الأشجار المبلولة بماء المطر. ربما حاصر زوجها المطر فعاد مسرعاً، فكرة ثم نهضت ببطء تلفّها العتمة. لـم تفكر أن تضـيء أنـوار المنـزل، واكتفـت بـتلمّس الجـدران والإنصات لصدى خطواتها المترددة. كانت المسافة إلى الباب تمتد أمامها إلى ما لا نهاية. استمر طرق الباب بانفعـال شـديد. خافـت أن تفـتح البـاب، وسـألت (مـن الطارق؟) لم يرد عليها، واستمر يطرق أكثر وأكثر. ازداد خوفهـا وحاولـت أن تعـود لغرفتهـا، لكنّهـا بتلقائيـة غريبـة

فتحت الباب ببطء شديد جداً. ما أن انفتح الباب قليلاً حتى انقضّوا عليّها. انهال الضرب والرّكلات. لم تستطع الدّفاع عن نفسها. أحسّت برأسها يكاد يتهشم، والأرض لم تعد ثابتة، صارت تدور وتدور مثل مغزل صوف. ثم سقطت على الأرض الصلبة، دون أن تفهم شيّئاً، ودون أن ترى شيّئاَ سوى أشباح ضبابية متراقصة حولها، أشبه باحتفالات الهنود الحمر حول النّار. اعتلاها جسد بعد الآخر، امتلأ أنفها بروائح نتنة. لم تعرف ما الذي يريده هؤلاء الأشباح، هل الاغتصاب أم الانتقام من شيء ما تجهله، أم قتل بطريقة أخرى. أغمضت عينيها مستسلمة لكل شيء يحدث الآن. تقلّصت معدتها، أرتجف جسّمها. فتحت فمها بحثاً عن الهواء، فأحسّت أنّها تتقيأ. امتلأ وجهها بسائل حامض. امتزجت أنفاسها برائحتهم النتنة ورائحة القيء والدم المتدفق منها. ولمّا التفّوا حولها سمعت لهاثهم المتقطع أشبه بفحيح الأفاعي السامة، وهم يلعقون دماءها ولعابها والسائل الحامض التي ما زالت تتقيؤه. ارتفع الصّدى عميقا في العتمة، يؤكّد لها واقعية هذا الكابوس العنيف. أنهم وحوش. ذئاب شرسة قادمين من المجهول الغامض، ثم يرحلون إلى المجهول الغامض. وحدها الآن تتمزق أشلاء متناثرة

في صحراء خاوية. عتمة قاتمة تخنق أنفاسها الشاحبة. ترتجف ثم تتقيأ مرة أخرى. ازداد الألم في جسمها لدرجة أنّها لم تعد تشعر به، والخلاص صار وهما متلاشياً كتلاشي وجوههم في العتمة، متناغماً مع هدير الرعد الصاخب. الريح غاضبة خارج المنزل، يعلو عويلها مشتتاً همهماتهم المبتورة. كل شيء مستمر حتى النهاية ولا أحد يعرف النهاية.

أشرقت الشمس، تلاشت الغيوم وأصبحت السماء صافية. انتشر ضوء الشمس في الغرفة. استيقظت متعبة جداً، حاولت النهوض من سريرها فلم تستطع. أحسّت بأن جسمها مكسّر، كأنّها رُميت من فوق سطح بناية عالية. تذكّرت كابوس ليلة البارحة، فارتجف جسمها كالسّعفة، كابوس مخيف، عنيف. بسبب جدّتها. لم تستطع التخلّص من تأثير حكايتها الملعونة تلك. رغم مرور كل تلك السّنين. فلا تزال تعيش تفاصيل الحكاية بين فترة وأخرى. نهضت بصعوبة واقتربت من المرآة. ما إن شاهدت صورتها في المرآة حتى صرخت صرخةً ارتفع صداها بين جدران المنزل، ثم سقطت على الأرض دون حركة.

انتظار

كان واقفا ينتظرها، لم يتأخر، وصل بالوقت المحدد، تسارعت ضربات قلبه وهو يحدق بالفضاء الممتد أمامه، أفكاره مشتتة، حاول أن يكون أكثر هدوءاً، لكن يديه لم تتوقفا عن الارتجاف. (يا إلهي هل ستأتي وتزيل كل هذا الحزن عن قلبي المريض، أم أنها تتركني أصارع المرض وحدي). السّماء ملبدة بالغيوم، والبرد قارص يتغلغل في العظام، لكنّه لم يفكّر للحظة أن يترك المكان، ويعود من حيث أتى. عازماً على لقائها بعد كلّ تلك السنين الطويلة التي عاشها بعيدا عنها. حاول أن يتذكّر ملامحها ووجودها السّاحر، لكنّه وجد نفسه يصارع الذكريات القديمة التي تضغط على قلبه الضّعيف، وتجعله أكثر حزنا وصمتا... ظلام اللّيل يمتد عميقاً تاركاً فراغاً ذهنياً غامضاً، حاول أن يعرف ما الذي حدث فعلاً. وما الذي أتى به هنا، مشدودا بكل هذه القيود، فوق سرير أبيض. فتح عينيّه بصعوبة، كل شيء من حوله مشوش. ألم رأسه

يزداد كلّما حاول التركيز أكثر. رأى نفسه ممددا على السرير، رأسه مثقلا بالجّراح مشدوداً بالضمادات، ورجله مرفوعة بالأثقال، الألم يكاد يقتله. سمع أصواتاً قريبة منه لم يفهمها، ملتفين حوله، فرحين بعودته للحياة، بعد أن كان غائبا عن الوعي مدة لا يعلمها. ظلّ صامتا يحدق بنظرات زائغة على الجالسين حوله. (من أنتم؟) ظَلَّ السّؤال يضغط على ذاكرته بلا جدوى، حاول أن يتكلّم فلم يستطع. (أين هي؟) أخيراً سمع صوته يعلو في الرّدهة. لم يجبه أحد، ينظرون إليه فقط، ربما لم يسمعه أحد. أراد أن يرفع رأسه، لكنّه لم يستطع، أحس به ثقيلا جدَاً، وكل شيء من حوله يدور، يدور بلا رحمة، لكنّه ظلّ يسمع صدى صراخه مرتفعا في الرّدهة، يريد أن يعرف ما الذي حصل لهما، ما الذي حصل لها؟ كانت تمشي بجانبه، تتحدث معه، يغمرهما الفرح والحماس للتسوق، ما الذي حدث فعلاً؟ أخيراً استسلم لآلام جسده، متيقناً ان لا أحد يسمعه الآن، صار وحيداً منذ أن انفجرت السيارة المفخخة في السوق، وانتشرت الجثث مثل الغبار. تذكرها الآن وهي تمسك يده اليمنى قبل أن يفرقهما دوي الانفجار. لم يعرف كيف وصل هنا. وكم

مضى عليه من الوقت راقداً في هذه المستشفى التي تملؤها رائحة الموت الخانقة.

بعد أيّام، استطاع النّهوض مستنداً على عكّازات، وخرج أخيراً من الردهة، عازما رغم آلامه على رؤيتها. يتملكه الحنين إليها، يأخذه الحزن في رحلة عميقة للداخل الغامض، فيجد نفسه طفلاً يريد البكاء في حضن أمه. أحسّ بالممر طويلاً، طويلاً جداً، لكنّه رغم كل شيء يريد أن يراها. عندما دخل إلى الردهة الأخرى ظلّ واقفا فترة طويلة بجانب سريرها، غارقا في صمته، لم يفعل شيئا غير الاستغراق في النظر إليها. نعم لقد رآها أخيراً. تبدو كالملاك، راقدة على السرير، غائبة عن العالم، لا تشعر بايّ شيء من حولها، لكنّ الجراح تملأ جسدها. أحسّ بأنّها تبتسم وكأنّها تعتذر له عن بؤس العالم. لم يقل شيّئا. اعتصر الحزن قلبه مثلما الانتظار الآن يشتت خياله، فصار كطائر جريح ضائع بين أوراق الشجر.

(ألا نذهب يا أبي؟... منذ ساعتين ونحن أمام قبر أمي)

التفت إلى ابنه، وجهه شاحب جدّاً، وعيونه مغسولة بالدموع، لم يعرف لم كان ابنه قاسي القلب هكذا، لماذا يبدو كالحجر؟ لا يشعر بوجودها هنا وفرحها بقدومنا إليها بعد كل هذا الفراق. توكأ على عصاه خافضا رأسه،

متعثراً بخطواته، خلف ابنه الذي كان يسبقه للخروج من المقبرة.

الطريد

(١)

- ماذا فعلتم؟

تكلم الجّد بعد صمت طويل أحسّه الأحفاد دهراً. كعادته جالساً في شرفته يراقب عمل المزارعين في بستانه الكبير، لم يلتفت لأحفاده كي يرى الخوف في وجوههم.

- لقد أحرقنا منزله

قال أحد أحفاده محاولاً إخفاء خوفه وفزعه مما حدث.

- هل انتهى أمره؟

- نعم.

- حسنا ليكن درساً لكم كي تتعلموا الطاعة.

- .....

- هيا اغربوا عن وجهي.

(٢)

- أغبياء... حفنة أغبياء.

ارتفع صوت الجد الخشن. كان واقفا في شرفته المطلّة على بستانه الكبير متّكئاً على عصاه العاجية تاركاً ظهره لأحفاده الواقفين خافضين الرؤوس خلفه.

- لماذا تركتموه يهرب أيها الأغبياء.

- لم نعرف أنّه سيتمكّن من الهرب. ظننّا أنّه سيحترق في منزله بعد أن حاصرته النّار من كلِّ جانب.

- اخرس.

- .....

- أنت، سوف أترك لك هذه المهمّة... يجب أن تقتله، يجب أن تعرف أنّه أصبح قدرك... سيزداد غضبي عليك ان لم تقتله.

- سأقتله حتما يا جدي.

- هيا... اغربوا عن وجهي.

(٣)

- هل وجدته؟

- لم أجده.

- يجب أن تجده.

- ويجب أن أقتله.
- ولكن متى؟
- لا أدري.
- مضت سنين طويلة، وأنت تبحث عنه.
- سأبقى أبحث عنه.
- إلى متى.
- حتى أجده.
- وإذا لم تجده؟
- سيزداد غضب جدي عليّ.
- أتمنّى أن تجده في أقرب وقت.
- أُريد إنهاء هذه المهمّة، وأعود لحياتي السابقة التي نسيت تفاصيلها.
- نعم.. نسيت الكثير من طباعك الجّميلة... صرت فظّاً غليظاً منذ أن غضب عليك جدي.
- يجب أن أجده... يجب... يجب أن أقتله.
- لقد أصبح حجراً يعرقل صفو حياتك.
- إنه قدري.
- لماذا اختارك جدي، ولم يختر أيّاً منّا؟
- لا أعرف.
- ربما لأنّك أشجعنا.

- لا أعرف.
- ومن يعرف؟
- هو وحده الّذي يعرف.

(٤)

عندما اجتاز الطّريق الطّيني لم يكن ثمّة صوت غير انهمار المطر غزيراً والرّعد المتفجر كقذيفة مدفع ثقيلة. قطرات... قطرات تتساقط فوق رأسه، ثم تنزلق إلى الأرض المغسولة بالبرك الطّينيّة. أقدامه تدوس الوحل منغرسة، ثم يرفعها بصعوبة، وثمة عواء بعيد يمتدّ منخفضاً مع حفيف الريح وانهمار المطر، ثم يرتفع بطيئا فيعود منخفضاً. ارتعدت السّماء، أُضيء البرق فجأة، فأصبحت السماء نحاسية، انطفأ سريعا، وعاد الظّلام قاتماً.

بدّد هدوء اللّيل صوت إطلاقات ناريّة ثقبت العتمة سقط على أثرها متمرغا بالوحل كاتما صرخته. ابتلعه هدير الرّعد الصّاخب. انتشرت أمام وجهه بركة حمراء يشتّتها المطر مثلما تشتت حياته التي أمضاها هارباً من قدره مختبئاً في القرى المجاورة (هناك بين الحاضر والماضي هوّة عميقة جدّاً لا تتسع إلّا لجسد واحد هو

الجّسد الأكثر تمزّقاً... ولا تتسع إلّا للأبجديّة الأكثر نزيفاً هي الأبجدية الصّامتة... لا تتسع لأكثر من فاجعة... تتسع للفاجعة الأكثر اختراقا للأرواح المعذّبة الغارقة في الخطيئة). أحسّ بأنّه يهوي في واد سحيق. حرّك يده بصعوبة باحثاً عن الجّرح النّازف، لم تجد أصابعه المرتجفة غير الدّم المتدفق وملوحة الوحل الحارقة. حاول أن يحرّك جسّمه، ولكن هذا الطّين لا يتركه يتحرك حركة واحدة. أصبح مشلولا أشبه بالذبابة التي اصطادها العنكبوت بخيوطه المتشابكة. وأخيرا لم يبق سوى الألم والخوف من النّهاية المجهولة. ربما يأتي الصباح مسرعا فينقذه المزارعون... وربما لا يأتي أحد. ربما انتهى كل شيء، وضاعت حياته سدىً، وربما لم تنته. ربما هذه إرادة جدّه المعتكف في منزله الكبير غارقاً في صمته القاسي. وربما لم تكن إرادته. فكّر بكل هذا، ثم سقط رأسه ضارباً الوحل، الوحل الذي يملؤه الآن، ويملأ ذاكرته الضّعيفة مثلما يملأه الانتظار.

(٥)

- أخيرا قتلته.

- .....

- كنت شجاعا كما عهدتك.... ألم يعرف جدي؟
- انّه يعرف كل شيء.
- ولكن كيف؟ وأين وجدته؟
- لم أجده.
- ماذا؟
- ولم أقتله.
- ماذا؟
- لقد سمعت ما قلته.
- ولكن... من قتله؟
- لا أدرى.
- وماذا قلت لجدي؟
- قلت له الحقيقة.
- وماذا فعل لك؟
- بصق بوجهي.

اللحظة الفاصلة

وقف على جانب الشارع الرئيسي. لقد حجز لدى طبيب الأطفال لأبنته التي دخلت عامها الرّابع. طلب إجازة زمنيّة من عمله ووقف الآن في انتظار وصولهما معا، هي وأمّها على رصيف الشّارع العام المحاذي لعيادة الطبيب. السّاعة تقترب من الثالثة والنصف عصراً. السّماء ملبدة بالغيوم، والبرد القارص يتغلغل في العظام. ليلة البارحة لم يستطيعا النّوم، هو وزوجته، لقد أتعبهم السّهر معها. سعالها جافاً يستمر دونما توقف حتى تقترب من الاختناق. وعندما يحمرّ وجهها وتتسع عيّناها من شدة السّعال يحتضنها بخوف، شاعراً بالارتباك كلّما أحس بأنها ربما تموت بإحدى هذه النّوبات الحادّة الكريهة. لقد وبّختها أمّها كثيراً عندما ابتدأت نوبات السّعال تتزايد، طالبة منها أن تقلل من حركاتها، أن تهدأ قليلاً حتى تزول عنها هذه النّوبات المخيفة. لكنّها لم تتوقف عن اللعب والرّكض في أنحاء المنزل. حركتها مستمرة، مما زاد من

سعالها. لقد اعتادت النّوم على ذراع أبيها. وفي كل مرة كانت زوجته تقول له بأنّه سوف يفسدها بعمله هذا. لكنّه لم يكترث بكلامها. فقد كان يحبُّها... يحبُّها جدا. يحبُّ كلامها، حركاتها البريئة ووجودها الذي انتظره ثمانِ سنوات. نعم لقد مرّت ثمان سنوات من الحرمان، ثمان سنوات واجه فيها الكثير من نظرات الشّفقة، والكثير من تدخل الآخرين الذين يفرضون أنفسهم عليه. يتصورون انّهم بذلك يحسّون بمعاناته، ويقدّمون له المساعدة. بينما في الحقيقة تمنى لو أنّه يستطيع أن يقول لهم الواحد بعد الآخر (هذه حياتي الخاصّة وأنا أرفض من أيّ أحد منكم التدخل فيما لا يعنيه). لكنّه لم يستطع أن يقول ذلك. لقد أقنع نفسه بأن أخلاقه لا تسمح له أن يكون فظّاً مع الآخرين. لم يكن عقيماً، ولم تكن زوجته كذلك. كلّ الفحوصات أثبتت أنّهما طبيعيان مثل بقيّة الأزواج. ربما لم يحن الوقت بعد، ربما بسبب عوامل نفسية، وربما بسبب عوامل روحيّة، يعرفها الروحانيّون فقط، ولا أحد غيرهم من له المقدرة على أن يفعل شيّء لهما، يجعلهما ينجبان طفلا يزرع لهم البهجة في أيامهما ولياليهما، مزيلا عنهما كلّ هذا الفراغ القاتل. في البداية رفض بشدة الذهاب إلى الروحانيين أو ذهاب زوجته مع امّها اليّهم.

لكنّه رضخ أخيراً، ووافق على أن تذهب مع أمّها، عندما رأى تأثير الحزن والكآبة عليها. ليال طويلة يسمع بكاءها عاجزاً عن فعل شيء يزيل كلّ ذاك الحزن عنها. ولكنّ دون جدوى. لم يستطع حتى الروحانيون على فعل شيء لهم. ظلّوا عاجزين أمام حلمه أن يكون أباً، وعن إزالة جزءٍ يسيرٍ من أحزان زوجته التي بدأ اليأس يتسرب إلى نفسها وصارت تحسّ أنها لن تكون أما أبداً، وسوف تموت هكذا، تملؤها الحسرة لاحتضان طفل يخصها هي، هي وزوجها. رفض بشدة طلب امّه أن يتزوج بأخرى. إلا أنها أصّرت عليه أن يتزوج مرّة أخرى. لكنّه لم يتنازل عن موقفه مؤكّدا لأمّه بأنّ الله سوف يجازي صبره خيراً. الآن وبعد مرور أربع سنوات وخمسة أشهر على ولادة ابنته، تذكّر فجر ذلك اليوم عندما أيقظته إمّه وهي مضطربة جداً، وجهها مشع يعكس فرحاً طفولياً، قالت له (لقد رأيت رؤيا... زارني أبوك في المنام حاملاً معه طفلة وجهها كفلقة القمر قائلاً هذه حفيدتك التي انتظرتموها كلّ تلك السّنين، سوف تكون معكم بعد اثني عشر شهراً). سجلت زوجته تاريخ ذلك الفجر المبارك، متأكدة من صحّة كلام عمّتها، بينما بقي هو ينظر إلى فرح امّه واضطرابها ببلاهة، معتقداً في نفسه بأنّ ذلك ما هو

الّا هلوسة، أو ربما أضغاث أحلام. لكن بعد مرور أشهر تأكّد من صحّة الرؤيا. منتظراً يوم ولادة زوجته بفارغ الصبر. الأيام تمرّ بطيئة والأشهر كأنها دهر. الانتظار ثقيلاً جداً. تمنّى لو تمرّ الأيام سريعاً وتأتي السّاعة الموعودة. ولن ينسى مهما مرّت عليه الأيام والشّهور والسّنين تلك اللحظة السّعيدة جداً، عندما وضعوا بين يديه طفلته. ملفوفة بالقماط ووجهها مشعٌّ كأنّها طير من طيور الجنّة، تبكي، أحسّها كملاك مسح على قلبه المضطرب فصار يفيض حبّاً وحناناً. سألته عمّته ماذا تسمّيها. (انتظار) أجابها دون تردد. لقد انتظرناها كل تلك السنين العجاف، لكنّها الآن أعطت لوجودنا في هذا العالم معنى.

ابتسم دون أن يدري، وهو يرى عبر الشّارع عندما وقفت سيّارة الأجرة ونزلت منها زوجته وابنته التي ما أن رأته حتى صاحت (أبي) راكضة تريد أن تعبر الشّارع لتكون قربه. صاح بها أن تقف بمكانها ولا تتحرك لكنّها لم تنتظر. أفلتت يدها من يد أمها وركضت باتّجاهه، رغم وجود السّيارات المسرعة في الشّارع. لحظة تشبه الكابوس فعلاً. لم يستطع أن يلحقها، ركضت مسرعة لا ترى أحداً أمامها غيره، من دون أن تلتفت جانباً لترى السّيارة المسرعة القادمة باتجاهها. لم يستطع السّائق أن

يوقف السّيارة الّا بعد أن ارتطمت بها، فارتفعت في الهواء مثل الرّيشة ثم سقطت على زجاجة السّيارة الأمامية، وتدحرجت ليرتطم رأسها على رصيف الشّارع. احتضنها أبوها بكلتا يديه. رأسها مضرجاً بالدماء. لم يعرف ماذا يفعل وهو يرى الدّماء تخرج من فمها مع كل نفس تأخذه بصعوبة. رمت زوجته نفسها فوقه صارخة، مرتعبة مما تراه أمامها، لكنّها لم تسطع أن تفعل شيئا سوى الصّراخ غير المنتظم. اسود العالم أمامه، وصار يحركها مثل المجنون، طالبا من الله ألاّ يأخذها منه، بعد كلِّ تلك السّنين من الانتظار، بعد كلِّ تلك اللّيالي من المرارة وهو ينصت عاجزاً لبكاء زوجته. لكنّها الآن بين يديه مغسولة بالدّماء، تنظر إليه بعينين مذهولتين ولا تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة. وكلّما أسرعت أنفاسها كلما خرجت الدماء متدفقة من فمها.

(أبي) أيقظه صوتها المحبوب فتلاشت كلّ تلك الخيالات في العدم. نظر إليها فرحاً، ناسياً كلّ ذلك الألم الذي أحسّه قبل قليل عندما أخذه خياله إلى الخط الفاصل بين الحياة والموت. لقد رآها الآن، تمسك يد أمها، نازلتين من سيّارة الأجرة. انتبه إليها وهي تحاول أن تفلت يدها الصغيرة من يد امّها كي تعبر الشّارع اليه.

صاح عليها أن تقف بمكانها، وركض بكلّ سرعته إليها، لا يبصر أيّ أحد أمامه غيّرها، هي فقط، ولا أحد سواها. لم يلتفت جانباً كي يرى السّيارة المسرعة باتجاهه. ارتطم بالسّيارة فارتفع جسمه عاليا في الهواء ثم سقط على زجاجة السّيارة الأمامية، فتدحرج ليرتطم رأسه على رصيف الشارع. أغتسل رأسه بالدماء. حاول ان يرفعه ليرى ابنته المحبوبة سالمة، لكنّه لم يستطع الرؤيا، شعر برأسه ثقيلا جداً، والأشياء صارت تبدو له مشوشة. أغمض عينيه مستسلما لآلامه، فأصبح كلّ شيء من حوله مصبوغا بالأسود.

ليلة موحشة

بعد انتهاء مراسم دفن زوجته وأيام العزاء، ودع معارفه وعاد لمنزله وحيداً. كانت الساعة تشير إلى التّاسعة مساءً، قفل الباب بالقفل والمزلاج، وواجه قدره وحيدا. كان المنزل كئيبا جدا، تحيط به عزلة ستين سنة تسللت من عمره أحسها الآن لأول مرة في حياته، منذ سنين طويلة لم يشعر بعمق هذه العزلة، وهذا الفراغ الممتد مسافات طويلة يراه الآن غرابا أسودا ينعق كي يعلن وجوده، بقي واقفا دون هدف محدد، منصتا لنقيق الضفادع الذي يرتفع بين فترة وأخرى. نباح الكلاب السائبة يبدد صمت الليل. ها هو الآن وحيدٌ في منزله القديم، لا شيء سوى شبحها وروحها الجاثمة في أرجاء المنزل. مسح عرق جبينه. كان الجو باردا، لكن جسمه ملتهب جدا. تحرك بصعوبة باحثا عن شيء غامض لم يعرفه. تعثرت خطواته وسط ظلمة باحة المنزل الذي تحيطه أشجار اليوكالبتوس. دخل لغرفته فأستنشق رائحة زوجته. لم

يتوقع أن يجدها جالسة على سريرهما في انتظاره. لكنه عندما أضاء النور استند إلى الحائط من هول المفاجأة. لقد تخيلها جالسة على السرير بنظارتها السوداء التي صارت تلبسها بعد إجراء عملية الماء الأبيض لعينها اليمنى. اقترب منها بتوجس. كانت ضربات قلبه تزداد ارتفاعا كلما اقترب أكثر. لقد أحس أنه سيبقى أسيرا لروحها الجاثمة في جميع أنحاء المنزل. نعم لقد صار لها في السنوات الماضية الزوج والخادم والممرض، كان السكري قد تمكن منها، لكنه لم يمل من خدمتها بالرغم من ضعف قلبه. كان يعتني بها كطفلة تمناها يوما ما. فبالرغم من مرور أربعين سنة على زواجهما دون أن ينجبا، بقيت هذه الرغبة مكبوتة في أعماقه. حتى إنه لم يحاول أن يجعلها تشعر بحاجته الماسة أن يكون أباً حنوناً، أباً يحتضن طفلته الصغيرة ويقبلها على جبهتها بعد أن يضعها في فراشها كل ليلة قبل أن ينام. لقد أحترم موقفها الذي اتخذته عندما عرفت أمها أنه لا ينجب (هذا قدري الذي اختاره الله لي... لن أتركه يا أمي لن أتركه). كان يرى حزنها من خلال صور الأطفال التي كانت تجمعها (صور لبنات وأبناء إخوانها الستة وأختها الوحيدة) وتعلقها على جدران غرفتهما، ولم يعترض

يوما. ها هو الآن يحدق بالصور المعلقة على جدران الغرفة ورأسه مثقل بالأفكار المشتتة. (أبي كيف كانت أمي؟) كان في السادسة من عمره عندما سأل أباه (كانت أمك حنونة جداً) قال أبوه. لم يكن يتذكر شكل أمه. لقد ماتت بعد ولادته بسنتين. وربّته عمته التي أمضت حياتها في خدمتهم. وظلّ سنين طويلة يحلم بأمه متمنيا أن ينام لمرّة واحدة في حضنها الدافئ، وكلما أصابته حمّى في أيّام الشتاء كان يغمض عينيه ويتخيلها تمسح بيدها على رأسه، أو تحتضنه على صدرها وتقرأ له دعاء يشفيه ويحفظه من كلّ سوء. وأبوه كان فلّاحا في بستان التاجر اليهودي. تذكر صباح ذلك اليوم عندما أخذه أبوه للبستان وتركه يلعب مع ابنة التاجر قرب النهر المحاذي للبستان. كان سعيداً جداً وهو يركض خلفها. لم يشعر بفارق بينهما رغم ارتدائها ملابس جميلة جداً. حول رقبتها قلادة ذهبية، تزيّن أذنيها بأقراط صغيرة من اللؤلؤ تعكس لون الشمس الدافئ، وفي قدميّها حذاء أسود لمَاع. وكانت ملابسه قديمة جداً، حافي القدمين. إلا أنهما كانا منسجمين في اللّعب لولا أنها قد تعثرت أقدامها وسقطت في النّهر. كانت صرختها قد نبّهت أباه الذي ركض مسرعا دون أن يترك لنفسه أن يفكر لحظة.

رمى بنفسه في النهر وألتقطها من قاع النهر بعد أن ضرب رأسه بإحدى الصّخور القديمة قدم النّهر، أنقذها من الغرق دون أن يحسّ بالدّماء النازفة من جبهته. وعند عودتهم للمنزل جلده أبوه بالحزام الجلديّ، ولم يستطع النوم على ظهره مدة أسبوع. كل ليلة كانت عمّته تدهن له ظهره الصّغير ويظلّ يبكي حتّى ينقذه النّوم من الألم، دون أن يعرف ما الذي حدث مع أبيه بعد تلك الحادثة. لكنّه بعد ثلاثة أشهر رأى الحزن مخيماً على المنزل، لم يعرف ما حدث، ولم يعرف ما الذي أتى بكلّ تلك النسوة المتشحات بالسواد إلى المنزل، ولماذا كلّ هذا البكاء والنّحيب، كان يلعب في باحة المنزل حينما سمع عمته تقول لهن (ها هو يلعب دون أن يعرف أن أباه قد مات بسببه). مرّت سنين طويلة لكنّه بين فترة وأخرى كان يرى أباه في المنام، خارجاً من النّهر حاملاً البنت اليهوديّة ورأسه مضرج بالدماء، ولم يخبر أحداً كم كان يتألّم ويبكي كلّما تذكّر تلك الحادثة. كان متكوراً على السّرير، جسمه يرتجف، ورأسه مثقلٌ بالأفكار المشتتة، كانت الأحداث تتوالى عليه بسرعة رهيبة، لم يستطع تمييزها، ولم يفهمها. كان خائفا شاعرا بضعف قلبه، حتى ان شفتيه صارتا جافتين جداً، والغرفة لم تعد ثابتة، كانت

تدور وتدور. لم يستطع النهوض كي يبلل شفتيه بقليل من الماء، متابعاً هذا الكم الكبير من الصور المبتورة الغامضة، ثم صارت ألوانا متداخلة، أبيض، أصفر، أزرق، أسود. توقف كل شيء ولم يعد يرى غير السواد. لكنّه أخيراً سمع صوت أبيه (تعال معي بنيّ) (هل سامحتني يا أبي؟) (نعم بنيّ سامحتك) فتح عينيه فلم يرَ رأس أبيه مضرجاً بالدّماء، ولم يكن هناك أثر لأي جرح في جبهته. (إن قدميّ لا تساعداني على النهوض) قالها باكياً، متذكراً صباح ذلك اليوم الجميل عندما كان جالساً على كتف أبيه الأيمن، داخلين إلى بستان التّاجر اليهوديّ. سعيد جداً وهو يرى النخيل المرتفع إلى أعالي السماء، وأشجار البلوط والتّكي والرّمان. الأرض مفروشة بالعشب الأخضر والورد البريّ، والسّماء زرقاء صافية، زقزقة العصافير وهديل الحمام تزيد من جمال البستان جمالاً آخر، جمالاً وهدوءً لا يحسّه ولا يحبّه إلا من كان يحب الأرض مثلما يحب أمه وأباه.

أعلن صياح الديكة عن بزوغ فجر جديد، وارتفع أخيراً أذان الفجر. بأن الصّباح أخيراً، وارتفعت أصوات العاملين الذاهبين لأعمالهم، ارتفعت الشّمس إلى كبد

السّماء مشتتة الغيوم التي كانت تحجبها يوم أمس. وانتشر نورها في الغرفة.

على السرير كان ممدداً دون حركة، نائماً النّومة الأبدية، تاركاً جسداً بارداً كالرخام، حيث لا هواجس تخيفه ولا عزلة تسجنه، محققا دون قصد نبوءة عمّته حيث قالت ولدت وحيداً وعشت وحيداً وسوف تموت وحيداً.

ذكرى ألبمث

شرب القهوة بلا سكر على رشفات بطيئة شاعرا برائحتها متغلغلة في أعماقه واسترسل في أفكاره، يأخذه الحنين لأحداث مضت، تلاشت في غياهب الماضي فصارت خيالا يلاعب الذاكرة. حرره طعمها المر، ولو للحظة من تشتت أفكاره. لكنه عندما نظر إلى زجاج نافذة مقهى المول المبلل بقطرات المطر الناعمة، سرت بجسمه رجفة مفاجئة، من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه. لقد رأى وجهه غير مألوف لديه، كانت التجاعيد قد حفرت فيه وكأنها نقوش قد نقشت بدقة مخيفة. وضع كلتا يديه على مقبض عكازته مفكرا بالسنين التي تسربت من عمره، وذهبت أدراج الرياح، تلاشت لتصبح مجرد صور باهتة لكنها مؤثرة، تعكسها كل هذه التجاعيد والشحوب التي رسمت على وجهه، ليكون مثلما هو الآن رجل لا يشعر بالحاضر لكنه يعيش في فوضى الذاكرة العائمة بين الأحداث القريبة والبعيدة، بين دمار

الحروب القديمة التي عاشها واستنشق بارود قنابلها رغم أنفه، وبين انفجارات المفخخات الموبوءة التي تحول الأسواق إلى ركاما هائلا من الجثث الممزقة. أحس بالاختناق، وبثقل على صدره، لكنه رغم ذلك يأتي لهذا المقهى، في هذا المول المشؤوم كلما أحس بالحنين لابنه احمد، متذكرا ذلك الصباح عندما كان احمد ذاهبا لمقر عمله. لقد كان يعمل في إدارة هذا المول، ماسكا حسابات المول بأكملها. وخلال عمله لأربع سنوات صار محل ثقة الجميع ومحبتهم، لأمانته وحسن خلقه. ذلك اليوم كان صباحا مختلفا، أخبرته امه انها قد رأت مناما سيئا ليلة البارحة، وطلبت من احمد ألا يذهب إلى العمل، لكنه قبل رأسها طالبا منها أن تدعو له. حاول أن يتذكر من أخبره؟ من أخذه إلى المستشفى ليرى ابنه احمد هناك ممددا على السرير مغسلا بدمائه وساقيه مقطعة. كانت الردهة عباره عن فوضى، صراخ الجرحى وبكاء الأمهات وصياح الآباء والأبناء. لكنه رغم كل شيء استطاع تحمل نظرات احمد التي كانت تعتصر قلبه، نظرات فيها الكثير من الخوف والكثير من الألم والكثير من الحزن والكثير من المرارة، مرارة لا يمكن أن يحس بها إلا من حوله الألم إلى دمعة في عيون الأمهات. (أبي

أمي لا أستطيع تحمل الألم...لا أستطيع) صرخ احمد وهو يحتضر. كانت أمه منهارة بين أقدامه المقطعة تقبلهما بجنون. لم ينتظر منهما جوابا. فقد أخذه الألم إلى الغياب الأزلي تاركا خلفه فراغ ثقيل، ثقيلا جدا.

(أبي لقد أنهيت التسوق، مر وقت طويل وأنت جالس هنا، الا نذهب؟) أيقظه صوت ابنه عبدالله، مسح دموعه. نظر حوله في المقهى فاستقرت عيناه عبر النافذة المبللة، على مقر إدارة المول حيث مكان عمل احمد قبل سنوات. نهض يتوكأ على عصاه، ممسكا بيد عبدالله، تاركا خلفه غصة وذكريات داخل خيوط العنكبوت في زوايا جدران المقهى.

وجها لوجه

سار بخطوات بطيئة ثابتة دون تردد. أمامه امتد الممر طويلاً بلا نهاية، ساكنا بلا رحمة. نعم لقد رآهم في آخر الممر واقفين كالأشباح الموحشة، يتقدمهم الرجل الضخم، ماسكاً بكلتا يديه عصا غليظة. لوح بها في الهواء تحديا له ومهددا إياه بالموت الذي أنتظره كل تلك السنين الطويلة المتعبة، لكنه لم يفكر به بمثل هذه الحدة ولم يحس به بمثل هذه الواقعية المشؤومة. فكر، أنه يستطيع التراجع الآن والهرب مثلما أوصته قبل قليل لو كان لديه قليلاً من الحذر، قليلاً جداً. لكنه تقدم بتوجس نحو قدره المتغلغل بدمائه الحارة، وبحزن كبير جاثم على قلبه الذي لا يتوقف لحظة واحدة عن هديره الصاخب منذ الولادة.

في آخر الممر كان الرجل العملاق يحرك يده اليمنى في الهواء بحركة دائرية مستفزة كي يثير خوفه وكي يحفزه على الغضب الأعمى. وعندما رأى يد العملاق السابحة

في الهواء، فكر بأمه الحزينة وهي ترتدي ملابس الحداد، عازمة على الرحيل خلف جثمان والده الذي تركها تواجه مصيرها وحيدة دون حماية، خلف جدران غرفتها الصغيرة المتهالكة، وفوق سريرها التي لم تنم فيه وحيدة طيلة أيام زواجها، إلا أيام قليلة منسية، فأصبحت الآن أرملة، لا تستطيع أن تعطي لأولادها حنين الكلمات الدافئة من فمها الصغير. وفيما هو يفكر بأمه تذكر أباه عندما كان يأخذه لصلاة الجمعة فيما مضى من الأيام البعيدة، يصلون في الصف الثاني أو الثالث دائما، يعيش تلك اللحظات في خشوع جميل جداً، شاعراً بصوت الإمام متغلغلاً في أعماق نفسه السابحة في ملكوت الرب. وظهرت أمامه صور مشوشة قديمة كان قد سمع عنها منذ أن كان صغيراً. لقد أخبرته أمه أنّ والده قد ترك الزراعة والريف وصار عاملاً متعباً دائما في هذه المدينة الزائفة بكل موروثاتها وقيمها السطحية. ترك الحياة البسيطة الجميلة ودخل في دهاليز الكذب والخداع والركض وراء لقمة العيش. (لماذا... لماذا يا أبي) ردد مع نفسه شاعراً بغصة وحزن يعتصر قلبه الصغير. ولم يكن حظ جده أحسن من حظ أبيه، كانت ملامح جده قد ظهرت ضبابية سابحة في أغوار زمن لم يشهده ولم

يعرفه الا من خلال تصورات ربما كانت شخصية جداً. لكنه أحس بالاختناق وهو يتساءل، لماذا ترك جده تلك البلاد السعيدة وأتى إلى هذه البلاد الدموية بحروبها العبثية، التي لم يحصد منها الا الباطل ولم يقبض الا الريح وسخرية القدر. ولما أصبح السؤال حاداً موقظاً أسئلة أخرى لا أجوبة لها تنقذه من الخطر الذي ينتظره بلا شفقة في آخر الممر، أحس برغبة قوية للبكاء في حضن جدته التي امتلكت طفولته بعنايتها الصارمة وعنادها الذي لا يقهر، راسمة مسار حياته بحكاياتها الطويلة عن أحوال جده وشخصيته الأسطورية ومواقفه المشرفة في نصرة المظلومين ومساعدة المحتاجين، والذي لم يستطع حتى الآن أن يحدد ملامحه. ولم يتحرر من عاطفتها المحبوبة الا بعد أن حولها المرض إلى كيان متفسخ، غائبة في عالم لا يعرفه الا الأموات. فكر بكل الذين يعرفهم، الواحد بعد الآخر، متمنياً ان يجد الخلاص على يد أقربهم إلى قلبه، لكنه الآن أصبح بعيدا متلاشيا عنهم. لم يبق في ذهنه سوى صور ضبابية تغيب في دهاليز مظلمة، مظلمة جداً، (يا إلهي الظلام دامس جداً أين أنا؟... أين أنا؟) والآن، وهو يقترب من الأشباح الغاضبة في آخر الممر والذي لم يعرف حتى الآن لماذا

يريدون قتله بمثل هذه الوحشية، وهذه الهمجية العمياء. لم يستطع تأجيل ما يحس به أو لا يعترف به بكل صلابة، الآن فقط عرف أنه كان انعكاساً لتلك الخيالات المزدحمة في ذهنه المشوش دائماً. تدفق الدم مندفعاً في أجزاء جسمه، والتهب وجهه، وصارت ضربات قلبه سريعا جداً. وفيما هو يقترب منهم ببطء شديد، أحس بالفراغ ثقيلاً لا يتشتت، وبالموت مخيفاً لا يتجدد. لكنه لم يتراجع خطوة واحدة للخلف، وحاولا قتل مشاعر الخوف والتردد في نفسه. صراع مرير عاشه بين الاستسلام لهؤلاء القتلة الأغبياء أو العودة إلى رتابة الأيام الماضية. لم يكن يحمل سلاحا يدافع به عن نفسه، لقد كان أعزل، مستسلماً لكل شيء قد يحدث، لهذا فقد أقترب منهم بخطوات بطيئة ثابتة دون تردد.

المحتويات

الّذي لن يأتي ٩
خذ الذي يعنيك وانصرف..... ٢٥
غيبوبة ٤٠
احتضار اللّحظة..... ٤٧
جندي..... ٥٣
عودة جندي..... ٥٧
الفـــخ ٦٠
مرارة الذكرى..... ٦٥
لوحة على الجدار..... ٦٨
الطريق إلى المقبرة..... ٧٣
تقمص..... ٨١
انتظار ٨٦
الطريد ٩٠
اللحظة الفاصلة ٩٦
ليلة موحشة ١٠٢
ذكرى أليمة..... ١٠٨
وجها لوجه ١١١
المحتويات..... ١١٥

٨١٣ / ٩٠٥٦٣
م ٣٥٩ محسن ، مناف كاظم
الّذي لن يأتي / مناف كاظم محسن
ط١ :- بغداد : دار السرد ، ٢٠٢٣ .
(١١٦) ص ؛ (١٤.٥ × ٢١ سم) .
١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .

رقم الإيداع
٤٨١٨ / ٢٠٢٣

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٤٨١٨) لسنة ٢٠٢٣م

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤

بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com

رياض داخل: Facebook